21 متر مربع

رواية

هي ودَكَر البَطّ

رضوى كرم الله

الكتـــــــاب: ٢١ متر مربع: هي ودكر البط
اسم المؤلفـــة: رضوى كرم الله
تصميم الغـلاف: ريهام البلتاجي
التدقيق اللغوي: عيد إبراهيم عبدالله
الطبعـــــة: أبريل 2021
رقــم الإيــداع: 2021 / 5987
الترقيـم الدولـي: 5 - 373 - 779 - 977 - 978
الموقــــــــع: www.ibda3eg.com

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله
dreidibrahim@gmail.com

للتواصل بخصوص النشر:
info@ibda3eg.com
publishing@ibda3eg.com
للتواصل بخصوص المبيعات
00201004022774

العنوان: 10 ش هدى شعـــــراوي، وســـط البـــلد، القاهـــرة
هاتف: 0223909119 - موبايل: 01001631173
البريد الإلكتروني: info@ibda3eg.com

dar__ibda3
ibda3-tp
dar__ibda3

21 متر مربع

رواية

هي ودَكَر البَطّ

رضوى كرم الله

إبداع

إهداء

للشوارع التي مشيناها وأنتَ بجانبي، لقُبلتي التي صدمتك، لعيونك التي أسرني، ليديكَ التي اشتدّت قبضتُها على يدي وقت الرحيل..

لكَ يا عزيزي النبيل.

أن تكون قليلَ الأصلِ في مجتمعٍ باعَ أصله حينما اتّبع هواه ليس شيئًا سيئًا لهذا الحد، السيء بحق أن تتظاهر بأنكَ ابنُ ناسٍ وأنتَ في الحقيقة دكر بطٍ مخنّث!

مسرح الجريمة

اقتربت منار من منزلها المتجمهرِ حوله الجيران، ماذا يحدث هنا، اقتربت منها سيدة تجري فيهتزّ جسدها المليء باللحمِ بشدةٍ فيجعلُكَ تضحك بدلًا من أخذ كلامها على محمل الجد، ألقت السيدة جملةً واحدة قبل أن تهرع منار سريعًا لفتح بوابة المنزل والصعود لتفقد ما يحدث:

-كان فيه صوت زعيق جامد فوق كإن حد كان بيموت، اتصلنا على مامتك مش بترد.. جينا نخبّط مفيش رد.

فتحت منار شقة أخيها بهدوءٍ بينما شارفَ قلبها على الخروج من تجويفهِ من عُنف نبضاته، ثلاثة جثثٍ تفترش الأرض.. صُعقت مما رأت، أتبكي الآن أم تتسلّح بالجلَد؟ صرخاتها التي هزّت سكونَ الليلِ كانت كفيلة بإخبار الجيران أن شكهم في وجود مصيبةٍ ما في محلّهِ فسارعوا من خلفها لتفقد الأمر.. النساء صرخنَ مثلها ولطمن، أحد الرجال أبلغ الشرطة من فورهِ بينما حزن الجميع على تلك النهاية المأساوية بينما خرجت جملة "من اللي عملوه فيها، كانوا مستنيين إيه" من وسط الحضور!

الساعة الحاديةَ عشر مساءً، دلف الضابط "ماجد حسّان" لمسرح

الجريمة لمعاينته، جثة سيدة في مدخل الغرفة أعاقت سلاسة دخوله فتخطاها ليدلف للداخل بدون لمسها، لا آثار ذبح أو قتل أو شنق أو تسمم تبدو عليها.. هي والدة المجني عليه الذي ألقى الضابط نظرةً متفحصةً على جثته التي تعلو السرير، جسدٌ عارٍ مربوطةٌ يديه لأعلى بالسرير، حبلٌ ملفوف حول عنقه مثبتٌ طرفه بطرف السرير، الوجه أزرق من شدة الاختناق، مفتوحةٌ عيناهُ عن آخرهما، عدة طعناتٍ متفرقةٍ في صدره والمقصُ المُستخدم في ذلك بجواره على الوسادة، بجانب السرير الزوجة فاقدةٌ للوعي إثر اصطدام أحد أطراف السرير المربوط فيه جسد زوجها في وجهها مما أفقدها الوعي فسقطت أرضًا، جسدها مليء بالكدمات والخدوش والجروح مما يؤكد تعرضها للضرب والتعنيف الشديدين، الزوجة والزوج عاريةٌ أجسادهم مع وجود منيّ وإفرازات مهبلية على جسد كلا منهما مما يؤكد أن جريمة القتل تمت أثناء قيامهما بعلاقةٍ حميمية، زجاجة خمر فارغة وكوبٌ واحد عليه بصمات المجني عليه بالإضافة لكميات من البانجو والحشيش وأوراق "بفرة" على منضدةٍ بوسط الغرفة عليها مظروف مغلّف وعليه ختمٌ شمعيّ لم يُفضّ بعد والمئات من أعقاب السجائر المُخضبون بأحمر شفاه، يبدو أن المجني عليه قُتل وهو تحت تأثير الخمر والمخدرات، الغرفة مضببةٌ بغيومٍ من السجائر ورائحة العرق، يتم تفتيش الشقة بأكملها بينما تم نقل الجثث وإلحاق المغمى

عليها لمستشفى ديمشلت العام تحت حراسةٍ مشددة..

سبب القتل: مجهول

أداة القتل: مقصٌ حاد وحبل غسيل

القاتل: ....

*****

البداية..

تداعبني بجانب أنفي برفق، زادت مداعباتها على وجهي حتى أثارت استفزازي واستنفاري لما يحدُث، حاولتُ إبعادها فلم تستجب لمحاولاتي، فتحتُ عيني الحرة بتأففٍ لأحل تلك المعضلة التي تنغص عليّ نومي الهادئ بعد أيامٍ أرهقت جسدي.. تحسستُ وجهي بهدوءٍ بعدما عثرتُ عليه بعد محاولاتٍ للوصول إليه لأزيح تلك الشعرة المستفزة لأصعق بكمٍ كثير من الشعر المتناثر على وجهي! انتفضتُ من مكاني لأصعق من الشعر الذي غزى سريري بغزارةٍ قبضت قلبي، لمن يعود هذا الشعر المحلوق!!

شعرٌ طويل لأنثى شعرها كثيف، كثيف لدرجة تغطيتهِ لبياض الملائة، ماذا يحدث هنا بحق الجحيم؟ قمتُ من مكاني بعدما قُبضت نفسي من منظر الشعر على سريري، علامات الغباء تظهر جليةً على وجهي الذي مازال أثر النوم عليه، وضعتُ يداي على رأسي لأوقف سرعة استقبالي لتلك الأحداث التي أصابتني بالدوار ، أصيبت نظراتي بالجمود متعلقةً باللا شيء حينما لامست أصابعي سطحًا أملسًا لا شعر في بعضه، الإدراك يتدافع لعقلي دُفعةً واحدة، أنفاسي تسارعت تلاها صعود صدري ونزوله بعنفٍ ليُجاري سرعة أنفاسي الساخنة

التي احتُقِنَت على إثرها دموعي، التفت للمرآة القابعة خلف ظهري، نظرتُ لنفسي مطولًا بعدما تهدّلت أذرعي، في رأسي طريقان طويلان لآخر رأسي لا شعر فيهما، اقتربتُ من المرآة أكثر، مددتُ يدي لأتحسس انعكاسي، ماذا حدث لي؟ انفرجت شفتاي عن ابتسامةٍ بينما انهمرت دموعي كشلالاتٍ لا تتوقف، ضحكاتٍ هستيرية صدحت في الأجواء بطريقةٍ أرعبتني، التفت لسريري أُلملم شعري المتناثر بعشوائيةٍ الراكد كطفلٍ فارقتهُ الروح بعدما كان شعلة حيوية متّقدة فخَمُد جسدهُ وتراخت حيويتهُ وفقدَ بريقه، أمسكتهُ بين قبضتي.. وقفت على السرير.. نثرتهُ في الهواءِ والتففتُ أسفله وهو يتساقط على جسدي الذي فقد إحساسه بالزمان والمكان لكنه لم يفقد قدرته على الضحك، دقائق من الرقص والالتفاف أسفل شعري الطائر بأجواء الغرفة حتى فُتح باب الغرفة ليطل منه وجه حماتي العقربة وابنتها من خلفها في فضولٍ لمعرفة ما يحدث لي ونظراتها الشامتة التي أعرفها عن ظهر قلبٍ تحاصرني فتوقفتُ عن الحركة وتباطأت دقاتُ قلبي تلتها أنفاسي، خرج صوتُ حماتي الضاحك قائلًا:

-آدي آخرة وقفتك في البلكونة بشعرك اللي كنتي فرحانة بيه أوي..

*****

ليلة الدُخلة..

-اتجوزتيه يا بنت ثنية؟ وديني ما ههنيكي عليه.

كانت تلك الجملة التي ألقتها حماتي على مسامعي وهي تودّع ابنها العريس الذي كان يرافقني لأول مرةٍ لشقة الزوجية -الضيقة جدًا- التي حصلنا عليها من بيت العيلة بعد طلوع روحنا لأن حماتي لم تكن موافقة على زواجي من ابنها الذي حفى ورائي الأرض حتى وافقتُ بعدما التمستُ منه حبًا صادقًا لي، لم أكن أدري وقتها أن عم صادق قد مات بسكتةٍ قلبية!

نظرتُ لزوجي الذي ضحك من جملة والدته وهو يدفعني للداخل حتى يُغلق الباب من خلفنا، تركني وراء الباب واقفة بجمود ودلف للشقة جالسًا على الأريكة ليخلع حذاءه وسترة بذلته الأنيقة التي اختارتها والدته بعدما رفضت تلك التي اخترتها، حتى فستاني الذي أرتديه هي التي اختارته بعدما ذهبت لمحل الفساتين وألغت حجزي لفستان أحلامي واختارت هذا الرديء لأتفاجأ أنا بفستانٍ بشع الشكل في غرفة تبديل ملابسي، أبلغت الفتاةَ أنه ليس فستاني لتتلو عليّ ما حدث وأنها فعلت ذلك لارتفاع سعر تأجير فستاني الذي اخترته بالرغم من

كذبها البيّن مرفقةً ذلك بأن جميع الفساتين قد حُجزت بالفعل ولا خيار أمامي سوى هذا القبيح المعلّق أمامي، سارعتُ وارتديتُ ملابسي وسارعتُ للخارج وعلى وجهي مساحيق التجميل لأقوم باستئجار فستان آخر من أحد المحلات المحيطة بنا لأتفاجأ بـ "الميكب آرتيست" تُخبرني أن عريسي في الخارج ينتظرني، مشددةً عليّ أن أتقبل الأمر الواقع حتى تمر ليلتي على خير على حد تعبيرها بينما أنا وهي نعلم تمام العلم أن الخير لن يزور حياتي مع تلك العائلة، دلفتُ للداخل.. لم أبكي.. لم أصرخ، فقط سمحتُ للمساعداتِ أن يضعنني في ذلك الفستان الذي أقسم أنه كان بمثابة آلافٍ من الدبابيس على جسدي، خرجتُ لزوجي.. لم أنبث ببنت شفة.. لم يعلق على فستاني الذي كان معي وقت استئجاره فعلمت أنه على علم بفعلة والدته الخسيسة، وصلنا للقاعة التي حجزتها والدتهُ أيضًا ودلفنا للداخل.. الضوضاء تأتي من كل مكانٍ والفرحة عارمة وصدري مشتعلةٌ فيه النيران، لم أضحك، لم أرقص مع زوجي، لم أتحرك من مكاني حتى ولم يحاول أحدٌ من أهلي أو أهل زوجي استخراجي من جمودي وصمتي، كأن الجميع كان يشيّع جثة يعلمون تمام العلم أن مثواها الأخير هو الجحيم المستعر!

انتهت جنازتي وذهبنا لبيتنا، غصّة التهمت قلبي من مرور يومي الوحيد كأنه مأتم.. لم أفرح به، التفتّ أبحث عن أمي لأخبرها ما حدث لي وأنا أبكي على كتفها فتذهب لهم "وتجيب لي حقي" أنا

طفلتها الوحيدة هي ووالدي "الخمورجي" بلا أخٍ أو صديقٍ أو حتى عائلة، وقفتُ وسط زغاريد الضيوف التي صدحت في سماء بلدتنا الريفية الصغيرة "ديمشلت" التي طمرتها ظُلمة الليل لأودعهم، فتاةٌ جميلةٌ مثلي تحلّ من على حبل المشنقةِ تُثاقل بالذهبِ لترضى بالزواجِ من شابٍ أقل جمالًا منها، تقفُ الآن وسط روثِ البهائم، نهيق الحمير وأسراب الناموس الذي شوّهَ بقرصاتهِ جلدي الرقيق وطلقاتٌ نارية تُطلق في سماء البلدة بعبثيةٍ مثيرةٍ للفزع.. زوجي شبه فاقدٌ لوعيهِ من فرط ما شرب من الخمر والمخدرات، أما حماتي فهي في تمامِ وعيها مصوبةً نظراتها كصقرٍ جارحٍ أراد أن يهدر دمي، التفتّ.. حملتُ فستاني الذي تلوث وصعدتُ على الدرج المؤدي لشقتي، قبري الجديد بعدما نقل رُفاتي إليه من بيت أبي الذي قُبرتُ فيه بعد موت أمي، صعدت من ورائي مباشرةً حماتي تلتها ابنتها التي سحبت أخوها من يدهِ خلفها واقفلوا بابَ المنزل من خلفهم..

وقبل أن أدلف شقتي ألقت تلك الجملة بكل الغل الموجود بالدنيا، دفعني زوجي ودخلنا وهو ينزعُ عنه ملابسة وشمّر أكمام قميصه عن ساعديه جالسًا على مائدة الطعام وبدأ يأكل كوحشٍ امتنع عن الطعام لأيام، أصابني الغثيان حينما رأيته بتلك الحالة فتركتهُ ودلفتُ لغرفة النوم لأنزع عني هذا الكفن، فككتُ شعري ونزعتُ الفستان عني وجلستُ على أرضية الغرفة أضم ساقاي لصدري وأنا أهدأ من

روعي، لماذا يا رب!! لماذا جعلت حظي أسودَ لهذا الحد؟! أرأيتَ مني ما يُغضبك فتعاقبني بتلك القسوة! أخذت مني يومي الوحيد.. أخذت مني فرحتي به وأعكيتني حماتًا من زبانية جهنم..

انفتحَ البابُ على مصراعيه ودلفَ منهُ زوجي الذي مازالت آثارُ الطعام حول شفتيهِ وعلى يديه، مازال فاقدًا الوعي ويبدو أنه سيكون يومي الأسود الأول في حياتي التي لن تدوم معه كثيرًا، قمتُ من مكاني وشددتُ من مُحاوطة ملابسي عليّ، لم أرد من هذا القذر أن يمسّني، اقترب مني وحاول تقبيلي.. أصابني الغثيان من جديد، رؤيته باتت تصيبني بالغثيان والخوف الشديد، أبعدتهُ بعنف عني فطاحَ أرضًا على ظهره، تبدّلت ملامحهُ الناعسة لملامح قاسيةٍ لم أعهدها منه قبلًا، تضائل جسدي مكانه وتوقع عقلي أسوأ السيناريوهات التي ستحدث الآن، قام من مكانهِ أرضًا.. خلع ملابسهُ بملامحه القاسيةِ المتوعدةِ تلك واقتربَ مني جاذِبًا جل جسدي من شعري بعنفٍ أحسستُ معه باقتلاع بصيلات شعري الغزير، خرجت صرخاتي المستغيثة ولكن بمن أستغيثُ ومن قد يُجيرني الآن؟

قد تظن أنك بهربكَ من حياتِكَ السيئة سيتحوّل المرّ العلقم لعسلٍ شهي، الحياةُ سيئة.. ستخبرك بأفعالها أنها اختارت أشخاصًا لتُسوّد عليهم عيشتهم، تعطيهم البؤس والخوف، إن اكتفوا أو لم يفعلوا تُهديهم الألم.. لا لشيءٍ إلا لفرض سيطرتها عليكَ أيها البائس لتُسارع

وتخسر حياتكَ إما شنقًا أو رميًا بالرصاص أو مبتلعًا للسُم، ستنظر لروحك التي فارقت جسدكَ ذعرًا بانتصارٍ ستضوي له السماء وتهتزُ له الأرض..

هذا باختصارٍ ما حدثَ معي، أخذ زوجي المغتصب شرفي مني عنوةً بلا ذرةِ شفقة، انتهى من ذلك وغطّ في نومٍ عميق ساعدني أخيرًا أن أجرّ نفسي وأبحثَ في الشقةِ عما أنهي به حياتي، لكنّ رغبةً بالانتقامِ من كل شيءٍ تملكتني فقاومتُ تلك الهواجس وذهبتُ للمرحاضِ لأخلّص نفسي من تلك القذارة التي دنّست جسدي، انهمرت المياهُ فوق رأسي ومعها دموعي، أبكي أمي وحظي العسر، آلامُ جسدي تنهش روحي.. تحرقها.. أكادُ من شدة الحرق أشتمّ دخانها المعبأ بخذلانٍ رهيب، لقد خلقني الرب ليكفّر بي أخطاء جميع البشرِ وكأني نبتٌ شيطانيٌ لا إنسان، لذلك حقي لن أنتظر أبوابَ السماءِ أن تُفتحَ لآخذه.. رفعتُ كفوفي المُرتعشة أمامَ وجهي التي تغمرهُ المياه المختلطة بدموعي الساخنة وأقسمتُ وأنا أكورهما أن حقي بكفوفي هذهِ سآخذهُ رغمًا عن الكل..

مرّ الليلُ ولم يزُرني النوم، لفظتُ كل الدموع التي بداخلي مرةً واحدةً تلك الليلة لأني لن أملك رفاهية البكاء هذه بعد الآن.. قرأتُ ذاتَ مرةٍ أن الإنسان يتحوّل لصخرةٍ حينما يخذله كل شيء، والليلة هي ليلة تحوّلي لصخرةٍ لن يحرّكها هواءٌ ولن يؤثّر فيها مطر..

سرحَ خيالي للبعيد، قرأتُ كثيرًا عن الاغتصاب الزوجي.. كان الجميع يضحك على عدم منطقية التعبير، باللّهِ كيفَ يكون اغتصابًا والزواجُ قائمٌ بينهما؟ كقارئةٍ نهمةٍ كنتُ أختلقُ أوقاتًا للفراغِ أثناء عملي كممرضةٍ لأقرأ كل شيءٍ وأي شيء، أثناء فترة راحتي في إحدى الليالي التي أسهر فيها بالمشفى أتت لنا زوجةٌ بكدماتٍ على سائر جسدها تطلب العون قبل أن تسقط أرضًا فاقدةً للوعي، أتذكر وقتها أني رميتُ الكتاب الذي كنتُ أقرأ وانقضضتُ عليها أحاول إعادتها لوعيها وفشلتُ فصرخت طالبةً السرير المتنقل لنُسعفها بينما أتحسس أسفل فكها وبداية عنقها لأستشعر نبضُها الذي يتباطئ بسرعةٍ أرعبتني، بعد ساعةٍ من المحاولة عادت لوعيها.. اهتممتُ بها دونًا عن سائر المرضى، شيءٌ بداخلي تعلّق بها وفضولي لمعرفة السبب الذي وصلت على إثره لهذه الحالة ينهشُ داخلي..

أبلغَ الطبيبُ المعالج الشرطة عن وجود زوجة حامل تعرضت لضربٍ كاد يُفضي للموت، كسور بيدها وبقفصها الصدري، عدة غرز في سائر جسدها كوجهها وحاجبها الأيسر، لم تكن بكامل وعيها لنستجوبها ولا هويةً معها تدلنا عليها، لذلك آثر الطبيب إخلاء مسئوليتنا عن حالتها لتتعرف الشرطة عليها بينما نكمل علاجها نحن، ما الذي يعرض حياة أنثى تحمل بأحشائها جنينٌ حديث الحياة لهذا العنف المذري؟ سؤالٌ لم يمر يوم إلا وسألته لنفسي.. مرت عدة أيام بدأت

فيهم تعود لسابق عهدها لكنها ترفض الحديث، تنظر للجميع بجمودٍ أليم، كنت أطعمها فتستجيب لي مرغمةً وهي تتحسس بيدها السليمة بطنها الصغير، يبدو أنها كانت على علمٍ مسبقٍ بحملها لذلك تنصاعُ لإطعامي لها خشيةً على حياة طفلها المحظوظ الذي لم يسقُط متأثرًا بكل هذا العنف، كنتُ أسهر بجوارها في إحدى الليالي وأنا أقرأ روايةً شيقة..

-اسمك إيه؟

خرجت تلك الكلماتُ منها بوهنٍ شديد وكأنها استجمعت كل طاقتها لتنطِقهم، سارعت لها متلهفةً:

-اسمي عبير وأنتِ اسمك إيه؟

نظرت لي وهي تهمس:

-أمل عبدالحميد رحيم

توهج وجهي، فأخيرًا سأعرف هوية تلك الناجية، لكني كنت أسألها اسئلة بسيطة تتناسب مع طاقتها المُهدرة..

-منين يا أمل؟

تجاهلت سؤالي هذا وطلبت هاتفي، نطقت رقمًا كتبته وراءها بسرعةٍ معقبةً أنه رقم والدها وصمتت، ضغطتُ على زر الاتصال وأنا أدعو أن يُجيب عليّ وبالفعل لم يمر الجرس الثالث حتى أجابني:

-إزيك يا عم عبدالحميد

-مين معايا؟

-أنا عبير ممرضة في مستشفى ديمشلت العام وبنتك أمل عندنا هنا من حوالي أسبوع..

-إنتي بتتكلمي بجد يا بنتي؟! أحمدك يارب.. أحمدك يارب

تهدّجَ صوته بالبكاء قبل أن يخبرني أنه سيأتي حالًا ليأخذ ابنته ونور عينيه، سقطت دموعي حسرةً على حالي، فأنا أبقى خارج المنزل بالأيام ولا يكلّف والدي نفسه عناء ثمن مكالمةٍ واحدة حتى ليطمئن علي ما إن كنتُ على قيد الحياة أو أنهت شاحنةٌ حياتي وأنا أعبر الطريق.. وما إن أرجع لبيتي حتى تبدأ زوجة أبي في مناداتي بالعاهرة التي ستجلب لهما الفضيحة لمبيتها خارج بيتها، التفتّ لأمل وبحزنٍ حادثتُها:

-إنتِ محظوظة بحب والدك ليكي..

استشعرت حزني العميق فبدا اهتمامها لتعرف السبب وراء جملتي تلك فأكملت بهدوءٍ أحاول فيه كبح فيضانات دموعي:

-أبويا لو فضلت بره البيت شهر ولا هيرفع عليا سماعة تليفون، وكإنه بيتمنى أخرج معتش أرجع.. ربنا يخليلك والدك يا أمل..

ربتت بيدها على يديّ التي كنتُ أضعهما على طرف سريرها، تواسيني وهي بحاجة للمواساة، مسحتُ وجهي وأنا ابتسم قائلةً لها:

-قلبناها حزن كدا ليه، سيبك مني أنا وقوليلي إيه ال عمل فيكي كدا؟

تجعدت ملامحها واحتقنت عيناها بالدموع، كنت أعلم أن ورائها قصةً مأساويةً ربما توازي بؤس قصتي.. ضغطت يدها بغيظٍ واضح، أخذت نفسًا عميقًا وبدأت في تلاوة حكايتها:

-من أول يوم اتجوزته وهو إيده طويلة وبيضربني على الصغيرة والكبيرة، كنت بسكت وبعدّي علشان بحبه وما صدقنا جمعنا بيت واحد.. لكنه كان ماشي بكلام أمه، لو قالتله يموتني هيموتني بالرغم من إني حب حياته..

وف يوم حسيت بغثيان شديد، بعد سنة كاملة بنلف على الدكاترة علشان نخلف عرفت إني حامل، روحت للدكتور وقالي إن حملي عزيز.. ممنوع أتحرك من مكاني أو أشيل حاجة من مكانها، ومنع زوجي عني، دا مكنش عاجب جوزي وفضل خناق على الفاضية والمليانة وعاوزني أقوم أعمل شغل البيت بالعافية وأنا كنت خايفة على اللي ف بطني، كنت بسيبه يهيص ومبعملش حاجة بردو..

صمتت برهة فحثثتها أن تُكمل..

-جه من بره وكان عامل زي المجنون، عاوز يقربلي بأي طريقة، رفضت بأدب وقولتله مش هينفع علشان ابننا.. قبل حتى ما أخلص كلامي سحب حزامه ونزل عليا ضرب وهو بيسحبني من على السرير، ضميت نفسي على بطني علشان ضربه ميوصلش لإبني..

قاطعتها بهدوء معقبةً:

-علشان كدا ضلوعك اتكسرت..

أكملت بأسى:

-كان بيضربني في ضلوعي برجليه، محدش شالني من إيديه برغم صريخي ال يمكن صحى كل المنطقة، أصل عندهم من حق الراجل يضرب مراته عادي، هربت من تحت إيديه بالعافية وهو مصمم ع ال ف دماغه، عاوزني وبالعافية.. لما حس إن مفيش فايدة بردو سابني وخرج، فضلت مكاني بعيط مش قادرة أتحرك وماسكة بطني وبعد محاولات سحبت نفسي من على الأرض وقومت علشان آجي المستشفى علشان تلحقوا ابني..

-وابنك بخير يا ست أمل وانتي كمان هتبقي بخير متقلقيش أنا جمبك..

-تفتكري هعرف انسى موقف الاغتصاب دا يا عبير؟

صدمت من جملتها، اغتصاب؟ أي اغتصاب؟!! فسألتها مندهشةً:

-اغتصاب إيه يا أمل؟

-ما ال حصلي دا محاولة اغتصاب، أه هو جوزي وأنا حلاله لكن الأمور مش بتمشي كدا..

-أنا أول مرة أسمع عن كدا، هو فيه بين المتجوزين اغتصاب؟

-آه.. اغتصاب زوجي، بيعامل مراته على إنها مش إنسان.. هو يطلب وهي تنفذ حتى لو ضد رغبتها.. لا فارق معاه تعبانة أو لأ، هو عاوز

يشبع رغبته وبس..
قاطع حديثها رنين هاتفي برقم والدها الذي وصل أخيرًا سائلًا عن مكان صغيرته متلهفًا عليها..
عدتُ بذاكرتي لواقعي الأليم، أمل كان لديها أب طلقها من الخسيس زوجها لكن من سينتشلني أنا من براثن زوجي المغتصب؟ كان لأمل أملٌ في حياةٍ جديدة، لكن من أين لي بنهايةٍ سعيدةٍ مثلها؟ ها أنا مررتُ بتجربةِ اغتصاب لفتاةٍ عذراء لن تُنسى من ذاكرتي، شقشق الصبح أخيرًا ومعهُ ولدت شخصيتي الجامدة الجديدة، لا استسلام.. لا ضعف ولا مزيد من الدموع..

*****

الصباحية..

استيقظ "حسن" من نومتهِ كالأمواتِ أخيرًا، أرعبتني فكرة استيقاظه بشدة، ستُعاد واقعة اغتصابي مراتٍ ومراتٍ ولا لرفضي عندهُ وزن! لكنّي أقسمتُ أني لن أستسلم لحقارتهِ تلك مهما حدث.. دلف للمرحاضِ وهو يترنّح يُمنةَ ويُسرة، حسن.. فارس أحلام الكثيرات، الشاب الأسمر الطويل ذو الملامحِ الفاتنة والعيون بلون الفستق، لحيتهُ الخفيفة وشارب أتاتورك الكثيف جدًا الذي يبرُمُ أطرافهُ طوال الوقتِ وكأنه يخبر الجميعَ بوجوده في وجهه.. حركةٌ تستفزّني بشدة، عضلاته المفتولة، صوتهُ الرخيم وأناقتهُ التي لا مثيل لها، ظلّت زميلاتي يحسدنني عليهِ أنا الفتاة قليلة الحظ ابتسم لها الحظ دفعةً واحدة ووقع في شباكي رجل تدور الفتياتُ حوله طامعاتٍ في نظرةٍ منه، وليت الحظ لم يبتسم لي.. ليتَ الحظ كان أعمى!

خرج من المرحاض بمنشفةٍ يفرك بها شعره الأسود المُبتّل، لو تبدّلت حكايتي التعيسة بأخرى لكنتُ الآن أنظر لهُ بهيامٍ بدلًا من كظم غيظي وحنقي منه المغلّف بالكرهِ الخالص، أعترف أنيّ لم أقع في حبّه برغم محاولاته المستميتة لذلك.. لكني كنتُ على استعدادٍ لمنحهِ قلبي وكياني كلهُ إن عاملني بما يُرضي الله، الحب يأتي في بعض الأحيان بالعشرة

الطيبة والمُعاملةِ الحسنة، لكني لم أجد من هذا الرجل سوى حيوان منفلت الرغبات!

نظر للسفرة على يساره بعدم فهم ثم اقترب مني بعدما أنهى تجفيف شعره، سأل باستنكار:

-فين الفطار؟

ابتسمتُ باستهزاءٍ واضح قبل أن تتجعد ملامحي وأنا أقول له:

-هو بعد اللي إنت عملته إمبارح دا ليك نفس تاكل أو تعيش حتى؟

نظر لي ببراءةٍ وهو يبتسم قائلًا:

-عملت إيه بس؟ المهم عجبتك!

وأرفق جملتهُ بغمزةٍ وقحة، شعرتُ برغبةٍ في الانقضاض عليه وتهشيم فمه حتى يتقيأ أسنانه واحدةً تلو الأخرى لعلّها تشفي غليلي، داخلي حريقٌ وخارجي ثابتٌ ثباتَ السماء، اصطكت أسناني بعنفٍ، خرجت كلماتي بهدوءٍ مستفز:

-إيه هيعجبني في واحد سايب رغبته تتحكم فيه

صمتّ برهةً وأكملتُ حملتي وأنا أضغطُ على كل حرفٍ فيها

-زي الحيوان..

انقضّ عليّ ممسكًا شعري وهو يجذبني منه لأقف في مواجهتهِ، تألمتُ بشدةٍ حتى كدتُ أن أبكي لكني كبحتُ دموعي وانهياري وأمسكتُ يده أبعدها عن شعري وأنا أنظر لهُ بجمود..

-وجعتك الكلمة أوي؟ بس للأسف دي الحقيقة يا حسن.. إنت حيوان.

-أنا سادي..

قال تلك الجملة، صعقني بها، إذا لم يكن ما حدث البارحة من تأثير الخمر الذي أذهب عقله! أيمكن أن تكون تلكَ طبيعته؟ وكيف عرف ذلك!!!

خرجت جملتي ببلاهة:

-أيوة يعني عاوز إيه!

رد بنفس نبرتهِ التي بدأت تهدأ تدريجيًا لملاحظتهِ صدمتي:

-يعني عاوز أمارس دا معاكي، إنتي مراتي حلالي.

فُتحت عينايَ على آخرهما وعلت نبرتي وأنا أقول بعنف:

-حلال إيه وتمارس إيه؟ هو ربنا لما قالك "وعاشروهن بالمعروف" المعروف دا إنك تطلّع أمراضك النفسية عليا؟!! المعروف إنك تعاشرني بمنتهى القسوة وتتجاهل رفضي وخوفي منك!!

ابتعد عني وجلس على الأريكة واضعًا قدمًا فوق الأخرى، أخرج علبة سجائره من جيبه مُشعلًا سيجارةً على مهلٍ وكأنه يستنطقُ صبري لأنفجر به، نفث دخانها في وجهي بصفاقةٍ وهو يقول:

-السادية مش مرض نفسي دي ميول..

رددتُ باستهزاءٍ على غبائه:

-والشذوذ بردو ميول.

نظر لي بغيظ:

-حاسبي على كلامك يا عبير أحسنلك، بقولك إيه دا حقي الشرعي وهاخده، عافية زوق هاخده، فبطلي دوشة وروحي اعمليلي كوباية شاي تروق دمي ال فورتيه ع الصبح دا..

نظرتُ له بتحدٍ:

-مش هعمل حاجة، طالما عاوز حقوقك وهتاخدها عافية زوق أنا كمان مش واجب عليا خدمتك..

نطقتُ تلك الكلمة وكان آخر ما شعرتُ بهِ قبل أن يجذبني من شعري ضاربًا رأسي بالحائط، اسودّت الرؤية، انقطعت أنفاسي وغاب عني الوعي لكمٍ من الوقت لم أدركه..

*****

-جايلّك عريس يا بايرة..

كانت تلك الجملة التي نطقتها "بهيرة" زوجة أبي التي لا يبهر فيها شيءٌ سوى جسدها الذي يشبه الكرة، لا أعلم ما المغري في تلكَ الشمطاء ليتزوجها أبي، نظرتُ لها بطرف عيني وأنا أخلع حذائي أمام الباب، رميتهُ بإهمالٍ على الأرض وأخبرتها وأنا أدلف لغرفتي وهي تمشي ورائي أني موافقة، مصمصت شفتيها وهي تقول باستهزاء:

-ما لازم توافقي ياختي، ما هو داير وراكي في كل حتة وسمعتك بقت على كل لسان..

وقفتُ على باب غرفتي، خلعتُ حقيبة ظهري ورميتُها أرضًا وأنا ألقي جواربي التي كانت بيدي بجوار الحقيبة والتفتّ لها بغيظٍ وأمسكتُها من ياقتها بعنفٍ وأنا أصرخ بها:

-مين دي ال سمعتها بقت على كل لسان يا زبالة يا عرة النسوان، إنتي فكراني زيك ولا إيه!!

خرج أبي من غرفته مسرعًا ليفضّ الاشتباكَ بيننا، تمسكنت له وهي تقول مصطنعةً البكاء:

-شايف يا حاج بنتك بتعاملني إزاي؟ آدي آخرة خدمتي وتربيتي ليها..

نظرتُ لها وأنا أخلع سترتي قائلةً باستهزاء:

-اتسهوكيله ياختي ما هو بيحب كدا وبياكل معاه ولو إنك لو كنتي مالية عينيه مكانش اتحرّش بغيرك..

نظرتُ له بنظرةٍ لا يفهمها سوانا فتوتّر وطلب منها فورًا أن تكفّ عن مضايقتي وأن تذهب سريعًا لتجهيز الغداء حتى نأكل سويًا.. التفتّ مغادرةً لغرفتي وأنا أقول بصوتٍ عالٍ:

-طفح معاكم مش طافحة..

وفي داخلي أقول بمنهى الغل:

-طفحتوه بالسم الهاري.

حلّ الليل وحلّت معهُ أوجاعي وذكرياتي، دلف أبي الغرفة بلا استئذانٍ

وكأنه يريدُ الإمساكَ بمجرمٍ متلبّس، الخصوصية في بيتنا في ذمّة الله، جلس بجواري على طرفٍ سريري فانتفضتُ وأنا أتكوّم على نفسي ضامةً ساقايَ لصدري مشددةً من تدثير نفسي بغطائي، ضحك بخبثٍ على منظري قائلًا باستهزاء:

-لا متخافيش مش جاي أحسس المرادي، انا جاي أقولك جايلك عريس وأنا موافق أستّرك..

نظرتُ له بقرفٍ وأنا أجيبه:

-إنت بردو اللي بتتكلم عن السُترة؟ ما كنت سترت نفسك قدامي بدل ما إنت فاضح نفسك كدا!

ردّ سريعًا قبل أن أكمل كلامي:

-ما أنا بصلح غلطتي أهو ورايدلك السُترة..

-ويا ترى بقى خمورجي ومتحرش زيك ولا إبن ناس وراجل؟

ضحك برغم أن كلمتي طعنت رجولته في مقتلها، وقال وهو يغمزُ بطريقةٍ أثارت اشمئزازي:

-لا راجل أوي وهيعجبك.. دا أنا حتى إتقالي إنو ماشي وراكي في كل حتة وإنتي مش مدياله ريق..

-قصدك مين؟ حسن المتولي؟!

ابتسم وهو يردّ بلهفة:

-هو بذات نفسه إبن الذوات دا.. أنا استغربت إنو رايدك، الهيلمان

والفلوس والنغنغة اللي هو فيها دي يخلوه يتجوز ست ستها، معرفش بصّلك على إيه يا دي البت، بس هقول إيه.. حظوظ.

نظرتُ لهُ بحسرةٍ وأنا أردد بداخلي "ديل الكلب عمره ما هيتعدل"

-أنا موافقة، أي مكان أغور فيه بدل الجحيم اللي أنا عايشة فيه.

ابتسم بانتصارٍ وهمّ واقفًا:

-بنت أبوكي بصحيح، كنت عارف إنك هتوافقي..

تجاهلتُهُ وأنا أستلقي لأنام قائلةً:

-أنا بنت أمي.. أمي وبس.

*****

أتى موعد خطوبتي على حسن الذي شهد له الجميع بهيامهِ بالعبدة للّه، كنت أشعر في أحيانٍ كثيرة بتصنّعه، لم أقدم له من المشاعر شيئًا حتى يقدّم لي جل مشاعره! الأمر لا يبدو منطقيًا على الإطلاق وموقف والدته يؤكد شكّي، هي سيدة جميلة الملبس والملمح، أرستقراطية للحد الذي جعلني أستغرب شكل منزلها "الفلاحي" فتلك السيدة من المستحيل أن تكون ربّة ذلك المنزل، لم تحبني قط.. عاملتني معاملة سيئة شهد بها كل الحضور واستغربوا صمتي، فلستُ بتلك الفتاة التي تسكت عن حقها، صمتّ لتمر تلك الزيجة على خير لا لشيءٍ إلا أني كنتُ أودّ بشدةٍ الهروب من ذلك البيت الذي أعيش فيه حتى لو عاملني الجميع بسوءٍ أنا راضية، لكن أحزنني عدم حضور أمي لخطبتي، مرّ

على خطبتي أسبوع وأتى حسن وبيده المأذون ليعقدوا قراني عليه، لم أعترض.. أنا فقط تركتُ نفسي للتيار يأخذني حيثما يشاء بلا أدنى اعتراضٍ مني، لكنّ نبتة الشك نمت بداخلي.. لمَ هذه السرعة الغير مبررة؟ لم يمرّ أسبوعٌ واحد؟! لم تنتهي كل صديقاتي في المشفى من تهنئتي! لم نتحدث في الهاتف بالساعات كما يفعل المخطوبين، لم نتشاجر ولم نتبادل كلماتِ الهيام! لكني قتلتُ شكي بابتسامةِ القبول حين سألني المأذون "موافقة يا عروسة" وذيلتُ موافقتي ببصمتي، نظرتُ لأمي الواقفة بعيدًا بصمتٍ بينما لم تعلو الزغاريد.. لم يهنئني أحدٌ سوى حسن ووالدي الذي غمزَ زوجته لتزغرد لكنها لم تفعل، هي وحماتي تجلسان برفقة أخت زوجي يتهامسون بغلٍ عليّ.. احترق قلبي، نظرتُ لأمي فلم أجدها.. أين أنتِ يا أمي؟ لماذا تركتني لتنهش الكلاب جسدي؟ أين ذهبتي؟!

اخترق صوت "حسن" أذني وهو يقول لأبي بنفاذ صبرٍ وكأنهُ انتظرني كانتظار يعقوب ليوسف:

-ها.. الفرح إمتى يا عمي؟

همّ والدي أن يتحدث لكنّ صوت حماتي ألجمه الصمت حين قالت:

-وليه السرعة دي يا حسن، ما بالراحة شوية خلينا ناخد نفسنا من خطوبتك وكتب كتابك العروسة مش هتهرب.

نظر لها فصمتت، ثم أدار رأسه لأبي الذي لم يدافع عني ولا عن

كرامتي التي تستبيحُها تلك المرأة فردّ أبي بهدوء أعصابٍ أتلف أعصابي:

-اللي تشوفه يابني إحنا جاهزين، حاكم أمها كانت بتجهزها من صُغرها كان نفسها تشوفها عروسة.. فكل حاجتها جاهزة.

عند جملته الأخيرة احتقن وجهي بالدماء واستأذنتُ مسرعةً لغرفتي حتى تشهد وحدها على انهياري، لم أسمع ما قالوه بعدها، علمتُ صدفةً من زوجة أبي أن حفل زفافي باقٍ عليه أسبوعينِ من الزمان.. وانتهت تجهيزاتي حينما حشرت حماتي أنفها في الموضوع رغمًا عني وبدأ مع الأحداثِ ينتهي صبري!

يقولون أن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة وأنا انتظرتُ رحلة خروجي من سجن أبي أربعٌ وعشرون سنة حتى أتت خطوتي الأولى وهي زواجي وهروبي كعصفورٍ جريحٍ من قفصٍ لم يقدّم لي سوى الشوك..

*****

أصواتٌ تأتي مبهمةً من بعيد، تُزعجني تردداتها الحادة، الضوء.. أنا لا أرى شيئًا، أجبرتُ عيناي على الشروق، أن يَشرُق نظري على الموجوداتِ من حولي، كم كانَ صعبًا عليّ ذلك، الآلامُ عصفت برأسي فرفعتُ يداي للإمساكِ به علّ آلامي تهدأ ويستكين جسدي من شرّها، أول صوتٍ أميزهُ كان لها:

-أهي زي القردة وفاقت أهي، كنت قلقان ليه.. الواحدة من دول

يتكسرلها ضلع يطلعلها أربعة وعشرين.. واهي اتعلمت علشان متردش عليك تاني وتسمع الكلام من سكات..

لساني لا يتحرّك، كم وددتُ لو لقنتُها درسًا لن تنساه ما حييت لكنّ حظها أن لساني مازال مُخدرًا من عنف ابنها الذي لم يرى في حياتهِ تربية، تحاملتُ على جسدي الخائرةِ قواه وقمتُ من مكاني لأجلس لأستفيق، جسدي ثقيلٌ كشكارةٍ من الملح، نظرتُ لزوجي الذي وارى قلقه بسرعةٍ خلف قناع ملامحه الغاضبة، قام من جواري وهو يأخذ أمه وأخته التي نظرت لي بعطفٍ لم أفهم مصدره كأنها تواسيني، لماذا نظرت لي هكذا؟ آلمني عقلي مما جعلني أتخلى عن شغلِه بأي أسئلةٍ الآن على الأقل.

اليوم هو يوم "صباحيتي" اليوم الذي ينتظره الأهل بفارغ الصبر ليتأكدوا من شرف ابنتهم عن طريق منديل الشرف، إن لم تُرى نقاطٌ من الدماء على صفحته البيضاء يلجئون لبعض الأساليب منها القتل فورًا إما على يد الزوج أو أبو الزوجة أو أخوها لينظفوا شرف عائلتهم الذي رماهُ الرجال على كهول النساء فقط، فـ "الراجل راجل مهما عمل" حتى لو زنا أو تحرّش أو اغتصبَ أو نهبَ أو سرقَ، لا يهم.. سمعته لن تلطخ.. أو تخرج من بيت زوجها بفضيحةٍ تجلجل الوسط وتخسر معها كل ذرة كرامةٍ وماء وجه لتُصبح مضغةً للألسنة للشهور التالية وهو يسحبها للطبيب لفحصها، يتأكدون من أنها بشرف.. لكنّ

فِعلة زوجها قد أهانتها وكسرتها للأبد..
باختصارٍ يظل الحرام عاديًا يفعلهُ الرجُل يوميًا حتى تفعله الأنثى فتنقلب الدنيا رأسًا على عقب، بالرغم من أن الدنيا كانت تُعطي للرجل كافة المبررات حتى يُكمل فِعلته، لذلك لا تستغرب سماعك لضحايا جرائم الشرف التي أغلب شهيداتها معصوماتٌ من الخطأ وضحياتٌ لجهلِ الثقافة الجنسية التي تنصّ على أن لكل أنثى خصائص جسدية تختلف عن الأخرى وأن التي لم يُزيّن الدم منديلها ليست بالضرورة وقعت في الخطأ من قبل، حتى وإن وقعت من أعطى حق قتلها للرجل؟ النبي محمد حين اتّهمت زوجتهُ عائشة في حادثة الإفك ذهبَ لها وقال:
-أمّا بعد، يا عائشة، إنّه بلغني عنكك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك اللّه، وإن كنت ألممت بذنبٍ فاستغفري اللّه وتوبي إليه، فإنّ العبد إذا اعترف ثمّ تاب، تاب اللّه عليه.
لم يقتُلها، لم يتّهمها، بالرغم من ضِيقه مما قيل إلا أنه ذهب وتحدّث معها بهدوء، قدّم براءتها على الوقوع بالذنب، وحين تحدّث عن احتمال وقوعها في الذنب نصحها بالتوبة! لكن في مجتمعاتنا يتم قتل الفتاة بدون تحكيم العقل أو البحث عن حقيقة الأمر بالرغم من أن اللّه تعالى يقول: "يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ"

تذكرتُ تلك الأم اللبنانية التي تُدعى "نجيحة نصر الله" التي ذبحت ابنتها ذات الاثنى والعشرين ربيعًا وسلّمت نفسها للسلطات اللبنانية، بالرغم من معرفتها أن ابنتها ضحيّة اغتصاب من شابٍ تقدم لخطبتها ولمّا لم يوافق أهله على تلك الزيجة اغتصب حبيبتهُ ليُجبرها على الهرب معه، رفضت الفتاة الهرب ورجعت لأهلها بعدما خدرها الشاب واغتصبها.. وظلت نجيحة تكرر أن القتل في عادات عشائرها هو السائد وأنه شرفٌ وناموس واجبٌ على الجميع تنفيذه لتفادي تقاتل رجال العشائر، في لقاءٍ تليفزيوني مع برنامج أحمر بالخط العريض كانت ثابتة وكأنها مُغيبة في ظل انفعال المذيع المحاور لها قائلًا لها أن هذا فكرٌ ذكوريٌ يُودي بحياة الفتياتِ ظُلمًا لكنها كانت ثابتة على موقفها الجاحد الخالي من كل مشاعر الأمومة، تُرى لو وجد أهلي وأهل "حسن" منديلي غارقًا في الدماء سيثنون صنيعه وأنه رجل أم سيوبخونه على النزيف الذي تسبب به لي من جرّاء عنفه؟! وهل حقيقة دمائي تلك هي دماء شرفي أم تهتّكي؟!

لن أبكي، ظللتُ أكررها وأنا أسحب جسدي لأرتدي من الثياب شيئًا يستُرني حتى أستقبل أهلي والضيوف المهنئين "لاغتصابي الحلال" الذين أتوا بعد سويعاتٍ من غيبوبتي الصغيرة.. واريتُ كدمات جسدي ووجهي بمستحضرات التجميل، اصطنعتُ ابتسامتي لأواجه بها الجميع، خرجتُ لاستقبالهم وأنا أستقبل عبارات التهنئة وكأني

اخترعتُ شيئًا لم يصل له أحدٌ من قبل، فضول زوجة أبي لمعرفة ما حدث وإن كنتُ بشريفٍ أم "كنت ماشية على حلّ شعري" مثلما كانت تقول أثار حزني على حالي، ألهذا الحد تنتظر الشماتةَ بي؟! نظرة الخيبة بعينيها حينما عرض "حسن" منديل الشرف عليهم كانت جليّةً بينما نظرات الفخر تطل من عيون من أبي وحماتي بلا ذرة اندهاش من كمّ الدماء، لم يفزعوا من كثرتها وكأنه شيءٌ مألوف، ألهذا الحد عاداتهم افتقرت للإنسانية؟ نظرتُ باحثةً عن أمي بين الجموع فوجدتها تقف بعيدًا لكنها لم تتكلم.

ماذا لو لم يجدوا تلك الدماء؟ أكنتُ سأُقتل اليوم؟!! لماذا إذًا لا يُقتل الزاني كما تُقتل المُغتصبة وضحايا جرائم الشرف المزعومة؟ لم يكن الشرف يومًا مختزلًا بشيءٍ، قرر الرجالُ في لحظةِ صفاءٍ أن ينسلخوا من شرفهم ويضعوه دفعةً واحدةً في مكانٍ ليسَ أهلًا له.. إن اختُزل الشرف في فروج النساءِ ماذا عن فرجه الذي يزني ويتحرش ويغتصب به؟ أليس له نصيبٌ من الشرف؟ ألم يعلم أنه زنى وتحرش واغتصب شرف غيرهِ بفعلته! لماذا يتوقع ألا يتدنس شرفه؟

يغتصِب ويُلقي باللوم على رغبته التي بها خُلقَ مع أن مفتاح التحكم كان في قوله تعالى: "قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ" أمره بغض بصره وفرجه.. لم يقل أن الرجل معصومٌ من العقاب وأن معه تأشيرةً لدخول الجنة..

توقفتُ عن التفكير وأنا أتساءل بفخرٍ دفين، متى تعلّمتُ كل هذا؟ أتت القراءة بثمارها أخيرًا، هذه نتيجة كوني قارئةٌ تركت اللهو واتجهت للكتب، دائمًا كانت القراءة مُنجيتي من هلاكي المحتّم، لولاها لسلكتُ طريق الانتحار بلا رجعةٍ من جرّاء تصرفات أبي، أبي.. خيبةُ أملي التي لن تُمحى مهما حدث؛ تخطّيه لحدودِ أبوّتهِ كانت القشّة الذي قسمت ظهري، قطع تسلسل أفكاري وصول أصدقاء "حسن" الذي مثّل أمام جميع الحضور مثال الزوج ابن الناس الطيب المحترم لأبعد حد، كم أثار نفاقهُ غيظي.. وددتُ لو صرخت به أمام الجميعِ مُعترفةً لهم بما حدث، ليتني أستطيع أن أريهم وجهه الثاني، نادى بصوتهِ الجهوري عليّ لأعدّ لهم الشاي وأجلب معه التسالي، لم يطلب مني فعل ذلك للجموع من قبلهم، استأذن منهم وأتى إليّ:

-السّهرة صبّاحي.. لو عاوزة تيجي تقعدي معانا تعالي..

اقترابه مني قبضَ قلبي، لا أريد مكانًا يجمعني بهذا الخسيس، كل شبرٍ في جسدي يؤلمني وأتحامل على أوجاعي لكي لا يشمتَ بي أحد، لم أعد أملك رفاهية طيرٍ يتنقلُ من مكانٍ لآخر.. فُتحت أبوابُ قفص أبي، طرتُ وحلّقتُ عاليًا ثمّ سقطتُ في مصيدة زوجي، نظرتُ لهُ باستنكارٍ واندهاشٍ شديدين، كيف يتحدث معي وكأنه لم يفعل شيئًا..

-آجي أقعد مع صحابك؟! إنت ليك عين تتكلم معايا بعد ال عملته؟ يا أخي كنت حوّش شوية من وساختك للزمن، مش لازم تطلعها كلها

مرة واحدة!

تجاهل على غيرِ عادته كلامي اللاذع ثم قال بلا تهديد:

-لو حبيتي تيجي إبقي تعالي..

التفتّ أكمل ما كنتُ أفعل من تجهيزاتٍ لسهرتهم وأنا أقول بهدوء:

-أنا عندي أقعد ف جحر تعابين ولا أقعد معاك ف مكان واحد..

ردّ وهو يأخذ صينية الحاجياتِ ويذهب ناحية غرفة الضيوف بلا مبالاةٍ لكلامي:

-اعملي اللي تحبيه.

نظرتُ له وهو ينصرف..

-هو الراجل دا مجنون وبحالات؟! يارب.. انجدني يارب من اللي أنا فيه برحمتك، أنا معتش مستحملة.

خرجتُ من المطبخ وتوجهتُ ناحية مكتبتي الضخمة بصالة الجلوس المجاورة لباب غرفة المعيشة الذي يجلس بها حسن مع رفاقه، توقفتُ أمامها أختارُ بعض الكتب منها، أي كتبٍ أختار يا ترى لمرافقتي أيامي القادمة؟ وقعت عيناي على روايةٍ تحمل اسم "الجزار" اسمٌ شيق لفت انتباهي فسحبتُها ولم آخذ غيرها.. لألتهمها اليوم جلها حتى لا يبقى منها سوى ذكرياتٌ من رحلةٍ عِشتُها معها، الجو باردٌ الليلة، سحبتُ جسدي قاصدةً غرفة نومي.. الغرفة التي تحوي كوابيسي وخيبة أملي، استوقفتني ضحكاتهم المُجلجلة وأحدهم يقول بصفاقة:

-قولنا عملت إيه يا وحش..

لم تغِب إجابة زوجي الديوث وبدأ بالفعل متفاخرًا يقص عليهم تفاصيل ليلتنا الغَبرة بأدق تفاصيلها، بدأ من تمزيقه لملابسي ورفضي حتى التفافه عني وذهابه في نومه الذي تمنيتُ لو لم يستيقظ منه أبدًا، شعرتُ بآلامٍ مُبرحةٍ في قلبي، قلبي ينزف خذلانًا من شدته جعلني أشعر بضيقٍ في تنفسي الوَهِن، لماذا من بين رجال العالم يارب يكون حظّي الزواج من دكر بطّ لم يرتقي يومًا لمنزلة الرجال، لم يكفهِ هتكُ عرضي ودناءته وقلة مروءته فأرادَ إشراكَ رفاقه في عرضي المهتوك، كيفَ سأقابلهم الآن وبأي وجه!!

صاح زوجي بصوتٍ ضاحك:

-كانت فرس.. فرس يابا الحج فرس..

وانفجرَ الجميع في ضحكٍ عارمٍ بعدما قال مُهنئين مُباركين صنيعه!

مشيتُ بأقدامٍ مثقلة لغرفتي، لم أقرب السرير، لقد جافاني النوم مذ ما حصل البارحة بلا رجعة، جسدي بحاجةٍ للراحةِ لكن يأبى عقلي أن تغفو جفوني رافضًا تصديقَ ما سمعته أذناي منذ برهة، جلستُ أرضًا أقاوم أمراضي الجسدية والنفسية التي تراكمت فوقَ وهَنِ جسدي، فتحتُ الغلاف البلاستيكي الحاوي للرواية، قربتُها لأنفي وفررتُ أوراقها من الغلاف للغلافِ وأنا مغمضة الأعين سامحةً لرائحة الورق بالتّوغل داخلي، نفسٌ عميقٌ أخرجتهُ بتنهيدةٍ طويلة

أحاول بها كبح جماح دموعي، مدمنةٌ أنا لرائحة الكتب، إدمانٌ يعادل قوة إدمان النيكوتين والكافيين مجتمعَيْن! بدأتُ أسبحُ مع الكلماتِ وأنا أتحسسُ الورقَ بهدوءٍ في قصةٍ سأعيشها الآن ولأنفصل عن واقعي الأليم هذا لبعضٍ من الوقت، من الأفضل أن أهرب لخيالي حتى لا أفقد عقلي.. ربّ واقعي!

لم أدري لكم من الوقت بقيتُ على هذه الحال، لم ألحظ تحرّك مقبض الباب، كان انتباهي مصبوبًا على مجاراة البطل والأحداث، لم أشعر بمن تسلل لغرفتي خِلسةً واقتربَ مني، لمسَ يدي فانتفضتُ من على الأرض واقفةً ظنًا مني أنه زوجي، لكني صُعقتُ حينما أيقنتُ أنه "وليد" أحد أصدقاء زوجي، ثمِلٌ يترنّح بلسان السكير الثقيل ونظرة اشتهائهِ لي جليةً على ملامحه، صرختُ بأعلى صوتي فيه ليخرج من غرفتي لكنه بدأ يقترب مني مُنقضًا على جسدي الضئيل حجمًا بالمقارنةِ بضخامتهِ محاولًا تقبيلي، صرختُ وصرخت ولم يأتي زوجي لنجدتي، كاد قلبي يتوقف من فرط دقاته السريعة.. وانا احاول بعزم قوتي إبعادهُ عن طريقي لأسارع بالذهاب لحسن، بدأ بتمزيقِ ملابسي في حين ضعفي التام عن زحزحتهِ ولو قليلًا ، بدأتُ في البكاء والاستنجاد بربي، يارب لا تجعلني فريسةً ليومينِ متتاليين، يارب أنا لا أقدر على مواجهة كل تلك الأحداث وحدي.. ساعدني أرجوك!

في لحظاتِ المِحنة.. حين يتدفق الدمُ لعقلكَ بسرعةٍ فتفقد توازنك

ويؤثر ذلك على ردّات فعلك، تظن أنها النهاية.. تغمضُ عينيكَ مُستسلمًا لنهايتك التي تلونت بلونٍ أسود، يفاجئك القدر بومضةِ نور، للقدر دائمًا الكلمة الأخيرة، وكانت كلمة القدر هو أن هذا النجس سيفقد وعيهُ الآن، أحسستُ بساقايَ أخيرًا، تدفقت طاقتي التي بدأت في التراخي لهما دفعة واحدة فرفعتها بعنفٍ لتستقر بين فخذيه فخرجَ صراخه وتلوّى من فرط الألم فابتعد عني بجسده ومازال صراخه يعلو وقد بدأ في سبابي بأقذع الألفاظ، نظرتُ حولي فاستقرت عيني على حاوية الزهور الخزفية، جذبتها بسرعةٍ وأثناء انحناء جسده لاحتواء ألمه رفعتُ يدايَ لآخر مداهما وأنزلتها بقوة جذب الجاذبية الأرضية لشيءٍ ما على رأسهِ فسقطَ أرضًا.. وقفتُ بعدما تهشّمت الحاوية على رأسهِ ألتقط أنفاسي، بصقتُ عليه وخرجت جريًا من الغرفة لأتوارى في حماية حسن، حسن الذي سَكِرَ هو ورفاقه وغابوا عن الوعي تمامًا وأجسادهم ممددةٌ حيثُ يجلسون، لا وعي فيهم ولا حياة.. جلستُ أمامهم أرضًا أبكي حاجتي لأمانِ وحمايةِ رجل، في بيتي ومعي زوجي وتحرّش بي صديقه!! جسدي يؤلمني بشدة، لم تعد لدي طاقةٌ للتحرّك، خارت قواي على مشارف رجلٍ كنت أظنه السند، حائط حمايتي، لكن الحائط انهار فوق رأسي ومعه أمنياتي الساذجة..

نكثت إيماني بعدم ضعفي وبكائي لكن غصبًا عني فآلامُ قلبي وجسدي سيطرت على ما تبقى سليمًا مني، سحبتُ جسدي ودموعي المنهمرة

كشلالات فينوفوسن غزيرة المياة عالية المسافة، كمسافة سقوطي من قمّة أحلامي الساذجة لأرضِ واقعي المدجج بالخوازيق، من جديد تسحب روحي فتات جسدي المُهشّم لمكانٍ أقتاتُ منه رفاتَ أمان في منزلٍ تشهد جدرانه على أنه لم يحوي إلا الخسّة والنذالة، خرجتُ من غرفة المعيشة أمشي بهونٍ على الأرض حتى وصلتُ لباب شقةٍ كنت أظنها مملكتي أدركتُ أني فيها جارية للمتعة، أدرتُ المفتاح وفتحتُ الباب على مصراعيه فلفح وجهي هواءٌ بارد كنت بحاجةٍ له بحق، شهيقٌ تلاهُ زفير أفرغ طاقتي ثم سقطتُ أرضًا سابحةً في عالمٍ أسود!

*****

الأرض.. مصدر أماننا الثابت، نسقُطُ أرضًا حينما تخذلنا الأيادي، نمشي أرضًا، نزرعُ أرضًا، نبني أرضًا.. حتى حين ننام نتسطّح مثلها موازين بأجسادنا كيانها الذي لم يتمرّد علينا برغم تمرّدنا عليه ورغبتنا في السكن المريخي واستكشاف القمر!

لم نرضى يومًا بكوننا خُلقنا من ترابها، لم يكفِنَا أنها استوعبت تقلّباتنا بصمت، نفجّر بطنها بمن فيها ومن عليها، بوّرناها وتنازعنا على ملكيتها لكنها بكل حنانٍ مستمرةً في الحمل بخيراتٍ بلاها سنموتُ جوعًا ولم يتوقف ألم مخاضها قط، تستمرّ في إعطائنا كل شيءٍ وأي شيءٍ نتمناه بلا قنوطٍ أو قسوة ومازلنا نفقد تواصلنا معها.. أتسطّح منذ ما يقارب الأربعة أيام على سريري، سريرٌ تنغص ملاءته

هناءَ نومي بكوابيسٍ باردةٍ كجسد ميت، تمنيتُ يدًا تُشدد على ضمّي، أن تتلقاني حين أشارفُ على السقوط، أن تمسك بيدي الوحيدة لنخطو طريق الحياةِ سويًا كل هذه الأماني فقط لخوفنا من أن نكون بمفردنا مع الأرض، مشيت عمري كله على الأرض ناكرةً فضلها عليّ.. لم أكن وحدي مطلقًا، كانت رفيقتي في كل أوقاتي السيئة قبل قليلها الجيد، لذلك قررت التخلي عن أمانيّ الساذجة.. أن أتصالح مع رفيقتي الأرض، أن أراها للمرة الأولى، أذاني من هم فوقَ الأرض ووارت هي الطيبين، لذلك سألجأ لها.. سأواجه مخاوفي للمرةِ الأولى وأنا واقفةٌ على أرض صلبة!

عقلي يميل لتعقيد الأحداث رغمًا عني ووصفها بطريقة سرد الروايات شديدة الإتقان، أميلُ للإسهاب، أن أصف أدقّ التفاصيل وأنا على يقينٍ أن الملل لن يتسلل لعقلي السارد، لن يفيدني الإسهاب في شيء اللهم إلا أن تتخلل التفاصيلُ نخاريب روحي التي ثقبتها المواقف والآلام، وفي حالتي.. "حسن" لم يطلب مني توضيحًا لفقداني الوعي بملابسي الممزقة على باب "شقته" بل اكتفى بمراقبتي عن بعدٍ ولولا الملامة لطلبني لعلاقة جديدة بلا أدنى ذرة شفقة، عافيتي بحاجةٍ للدعم، تخطيتُ حاجز الستة أيام بلا طعام ونومٌ متقطع أبهت جمالي، كنت أرفض الطعام التي ترسله لي حماتي ولم اضع لقمة واحدة في فمي ولم يلّح في طلبه بأن أتذوق الطعام حتى.. تركني على راحتي، وليته

يحررني من أسرهِ هذا لتأخذ راحتي الفعليةُ مجراها، لم انتظر منه عرضًا جديدًا لآكل، بل قمتُ من على سريري أستجدي الجدران السند لأتكئَ عليها بغير عَوَز لأحد، دلفت المطبخ لأعد لنفسي الطعام وفعلت وجلست على الطاولة آكل بلا شهيةٍ وفي صمتٍ لا تسمعُ منه سوي صوت مضغي الضعيف للطعام الذي لم يحتج مجهودًا للمضغ، لم أرى طيفه في الأرجاء فاطمئن قلبي واستقبلت معدتي الطعام بلا توتر، انتهيتُ وعقدتُ العزم على تجهيز ملابسي وحاجياتي للعودة لعملي الذي اشتقتُ له، كنتُ أتأفف من استيقاظي الباكر لعملي، أتمنى زواله والجلوس في المنزل لتقميع البامية وتقطيف وريقات الملوخية وأتدرّب على شهقتها، لم أدرك قيمته إلا حينما حُرمت منه لأسبوع كامل، قال شهر عسل قال، وهو أسبوعٌ يتيم إن اكتملت أيامه التي تصبح في الأخير ثلاثة أيام في جمصة وكان اللّٰه بالسر عليم! أما عنّي فقد قضيتهُ في صراعٍ من عقلي السارد والحياة الفاعلة.. لم أذُق العسل أقسم بذلك ولن يصدّقني أحدٌ للأسف ظنًا منهم أني أخزي العين، ناموس القرى الذي لا يتغيّر مهما حدث برغم أن التغيير قد طال أغلب المجتمعات وحُشرنا نحن في القاع نصارع للبقاء!

لم ينم حسن بجواري منذ وجدني على باب الشقة بملابس ممزقة، وكأن ضعفي لم يعد يغريه.. بينما نامت امي بجواري، أتمنى أن يظل على فقدان رغبته هذا للأبد، أدعو اللّٰه بذلك يوميًا وإن لم يستجب لي

سألجأ لتحقيق أمنيتي صناعيًا والطرق كثيرة، يقولون "ابن الحلال يأتي عند ذكره" أنا لم أذكر اسمه حتى لقد كان مجرد تفكير في كيفية قمع رغبته تلك للأبد انتقامًا لما فعله بي، جسدي الجميل تملأه الكدمات بشكل مثير للريبة، كيف تحملت كل تلك الآلام ولماذا؟

دخل الغرفة بلا أي استئذان، طبعًا لو طلبت منه أن يستأذن سيصفني بأني مجنونة لافتًا انتباهي أنه بيته وله الحق في أن يفعل أي شيء يريد، لكنه لا يعلم أنه من تمام الأدب وحسن العشرة أن يستأذن الزوج قبل الدخول على زوجته لربما لا تريد له أن يراها بهيئة لا ترضاها وفي حالتي أنا المتضررة من رؤيته، من المؤكد أن يقف الدين في صفي في مواجهةٍ مع هذا السادي، قال باستهزاء وهو يضحك:

-على فين العزم؟!

أكملتُ استحضار أشيائي ووضعها على السرير وأنا والصمت متلازمان، اقترب وجذبني من ذراعي ليجعلني في مواجهته:

-مش بكلمك؟!

نظرتُ له بلا مبالاة وأنا أحرر يدي من قبضته المؤلمة لجسد شبع من كثرة الكدمات..

-خير، بتقول حاجة؟!

لم تتحرك عيناي من على عينيهِ، نظر لي بتحدٍ واضح:

-مش دي هدوم الشغل بردو ولا أنا غلطان؟

-لا مش غلطان، ها حاجة تانية؟

همّ خارجًا من الغرفة وهو يُلقي كلماته التي بدأت في اشعال الحريق:

-مفيش مرواح للشغل.. بيتك وجودك أولى بيكِ، اشتغلي شُغل بيتك ومن بكره الصبح أول ما تصحي تنزلي عند أمي.. الست كتر خيرها سابتك اول كام يوم جواز، لكن البيت محتاج شغل..

على صوتي وبدأ تردده يُجلجِلُ سكونَ المكان نافذًا لكل من حولنا جمادًا كانَ أن إنسان:

-لا يا سي حسن كلامك دا مش عليا، شغلي أنا مش هقعد منه، كلامك أول ما جيت تتقدملي قولت شغلك مش هقعدك منه، لو مش راجل وقد كلمتك مكنتش تقول كلام مش قده.. وعلى خدمتي للست الوالدة ف أختك فيها الخير والبركة وأنا صحتي على قد شغلي وبيتي.. اه لا آسفة، بيتك.

ثارت أنفاسهُ وكشّر عن أنيابه وهو يهّم بخطواته ناحيتي ليُعنّفني كعادته..

-إنتي هتمشي كلامك عليا يا بت!

-مش إنت بدأتها حقي وحقك؟ أنا بق من حقي مخدمكش لا إنت ولا أمك وال جيت اتجوزتني عليه هو اللي هيمشي وهنكمّل بيه، مكنتش عاوز بنت بتشتغل العواطلية على قفى مين يشيل ومتلقحين ف كل حتة، بتاخد دبلومها بالعافية وتقعد تنتف في حواجبها وتقمّط في

عبايتها علشان تُشقط عريس.. أنا بق مش كدا يا بابا.. أنا تعبت لحد ما وصلت لشغلي وكملت دراستي ومش هسمح لحد يهدّ اللي بنيته مهما كان مين..

صوتُ شجارنا كان كفيلًا بجذب حماتي سريعًا، تدقّ باب الشقةِ بعنفٍ وكأنها ما صدّقت أن تجد شجارًا لتخرج نيران الغل العفنة من جوفها، أين تلك الأرستقراطية النزقة التي أتت لخطبتي مع ابنها وأنفها معلّقٌ في السماء!! لا أرى سوى ستّ تُجعجِعُ كما البطّ الذي أنجبت لي منهم "دكر بطٍ" لا ينافسهُ على اللقب غيره.. ذهب وفتح لها الباب وأنا من ورائه بينما اندفعت هي كبارودةٍ أطلقها صاحبها لتخترقني، أمسكتني من شعري وهي تُطاوِحُني يمنةً ويُسرة صارخةً بي:

-والله وطلعلك حسّ يا بنت ثنية، مش كفاية عملتك السودة ال سكت عنها بسبب إبني!!

بدأ حسن يحول بيننا "مشكورًا" كأول فعلٍ رجوليٍ يقوم به منذ التقيته وهو يقول لها بهدوء يتنافى مع ثورته:

-مش كدا يا أمي.. إهدي علشان قلبك.

أما أنا فقدت علِق عقلي عند وصفها لي بأني "عملت عملة سودة" فاندفعتُ ناحيتها مرةً أخرى سائلةً إياها:

-عملة سودة إيه يا ست إنتي!! انا عملت إيه!

نظرت لولدها وهي تزعِقُ:

-شوف!! غلطانة وبجحة.. أنا قولتلك الصنف دا ميسلكش معانا مسمعتش كلام أمك أم وش اسود..

كررتُ سؤالي وأنا أنظر هذه المرة لحسن الذي كان كمن يواري حريمةً ارتكبتها ولم يرّد على سؤالي عابثًا بأطرافِ شواربه كالعادة، فتبرّعت مشكورةً بإخباري:

-لما فوزية مرات أبوكي الست الكُمّل قالتلي إنك ماشية على حل شعرك قولت لابني ومرضيش يصدق أمه، أنا عارفة.. ف الآخر هتطلعي عملاله عمل علشان يرضى يتجوزك يا معنّسة.. ولما إنتي عاوزاه أوي كدا ملمتيش نفسك واحترمتيه ليه!!

فُتِحت عيناىَ على آخرهما وانقضضتُ عليها ممسكةً إياها من ياقة قميصها صارخةً بها:

-كلام إيه اللي بتقوليه دا يا ولية يا مفترية، عمل إيه وحل شعر مين!!

نظرت لولدها الذي بدأ يخلّصها من قبضتي قائلة:

-ما تقول للهانم اللي لقيناها من غير هدوم على السلم والله أعلم عملتها مع مين من صحابك اللي كانوا هنا واستغفلتك وانت نايم ومش مدي خوانة!!

تراخت قبضتي وتهدّل ذراعاىَ بجوار جسدي الذي بدأ الخِدر يسري به سريان الدماء، لماذا لم يواجهني حسن إن رآني بتلك الحالة؟ وأنا التي ظننتُ انه وجد صديقه بغرفة نومنا فاستنتج ما حدث

وقام بضربهِ وطردهِ من المنزل بعدما قطع علاقته به!! نظرتُ له.. أتأمل ملامحه التي ظهر عليها الانكسار، لا أدري لماذا لكنه لم يكن بحالته المعتادة، ماذا.. أيمكن أنه صدّق أني زنيتُ مع صديقه؟ ألم يُلملِم فتاتَ حاوية الأزهار وملابسي الممزقة من أرضية الغرفة قبل أن يضعني بالسرير الذي استيقظتُ فيه؟!! بدأت دقاتُ قلبي في الهُبوط تدريجيًا، تجاهلتُ ذلك وسألته:

-إنت جبتني من قدام باب الشقة عريانة!!

لم يُجب عليّ برغم نظراته المعلّقة بي، فسألتهُ مجددًا:

-إنت شوفت وليد ف أرضية الأوضة والفاظة المكسورة على دماغه وهدومي اللي قطعها؟!

ردد باستنكارٍ وكأنه لم يلحظ ما قلته:

-وليد!!

-أه وليد صاحبك اللي اتهجم عليا وهو سكران وفضلت أصرخ واستنجد بيك وربنا وحده اللي عانّي عليه وجريت عليك لقيتك في سابع نومة إنت وباقي صُحابك، خرجت بره الشقة علشان أنزل أستنجد بأمك اللي واقفة دلوقتي تتهمني في عرضي ال محدش هتكه غيرك إنت ومحستش بنفسي إلا وانا في سريري!!

نظر لي نظرةً خاويةً من كل شيء إلا من الانكسار، نفسه مكسورة، لماذا؟!! ألا يصدّقني؟ حسن لو تأكد أو أصابهُ شكٌ من الأساس كنت

سأكون في تعداد الموتى مذ وجدني عاريةً أمام الباب، ما الذي يحدث أنا لم أعد أفهم!!

-لو مش مصدقني دور على الفاظة..

-أنا صحيت ملقيتش حد من زمايلي موجود، كانوا مشيوا..

-يعني عملوا عملتهم ومشوا زي الحرامية!

صمتهُ آلمني، ابتسمتُ بانكسار، يبدو أن الخسّة ستطالُني أينما ذهبت، لم أنفعِل، لم أصرخ، لم يهتزّ صوتي العالق بحنجرتي يرفضُ صمتي.. فتحركت شفتاي بهدوءٍ شديد قائلةً:

-ياريتني ما اتجوزتك..

فردّت أمه بسرعةٍ غريبة بعض الشيء على مريضة قلب:

-اتجوزتيه ليه ياختي، هو إنتي كنتي تحولي يا بت!!

تعلّقت نظراتي بها بينما سبح عقلي للبعيد، بعدما انفصلت أمي عن أبي بسنة، كنتُ ابنة الثالثة عشر، تركتني وحيدةً مع أبي.. أبي الذي بدأ في التحرّش بجسدي وأنا نائمة وما إن أفتحُ عيناي يُسارع لكي يظهر وكأنه كان يدثّرني بغطائي، لم أكن أفهم لمساته لسائر جسدي، لكني أذكر أني لم أكن أنامُ رُعبًا مما يفعل، قلّ وزني وتساقط شعري وحاوطت الهالاتُ عيناي، كان الجميع يظن أنه بسبب انفصاله عن أمي، لم يدر أحد الجحيم الذي أعيشه مع أبي المنحرف، حتى تحلّيتُ بالشجاعة وذهبتُ لمدرستي وسألتها بخجلٍ عن الأمر لكني أخبرتها

بأنه شخصٌ آخر غير أبي، مشكورةٌ أخبرتني بأن ما يفعله يسمى التحرّش وبدى القلق على ملامحها الوقورة عارضةً التدخل للمساعدة لكني رفضتُ بشدة، لهذا السبب خصصت حصةً من حصصها للتوعية عنه وقامت المدرسة بتفعيل حملةٍ ضد التحرش وكيفية التعامل معه، بدأت أستعمل صوتي العالي في منع يديه من التسلل على جسدي الذي بدأ ينضج، أصرخ فيه، أضرب يدهُ الممدودة بجشعٍ على جسدي، تهديده بإخبار اخوته وجدي الذي كان لايزال على قيد الحياة، هداني عقلي للذهاب والعيش مع جدي في شقتهِ التي هي أسفلنا بدور واحد وبالفعل ظللتُ معه وكان يرعاني ويحنو عليّ حتى توفاه الله وأنا في السادسة عشر من عمري، أظلمت الدنيا بوجهي حينما أدركتُ اني سأعود للعيش مع هذا المنحرف الخمورجي الذي لا يراعي حرمة كوني ابنته، لكنه فاجئني بزواجه من أخرى بعدما صعدت للعيش معه بشهورٍ لم يكفّ فيهم عن العبث بجسدي بشراهةٍ وعدم خوف من جدي الراحل، "فوزية" التي كان جبروتها وقسوة قلبها عليّ أهون من تحرشات أبي الذي قلت، كانت درع حمايتي بدون علمٍ منها، كان يخشاها الجميع لفظاظة شخصيتها وأولهم أبي، لذلك حينما كان يعاود فعلته كنت أهدده بفضحه أمامها فيختفي من أمامي على الفور لعدة أيامٍ لا يُريني وجهه حرفيًا.. عدتُ إلى واقعي لأرد على سؤال والدته:

-اتجوزته علشان كنت مفكرة إني هلاقي الأمان معاه .
مصمصت شفتيها وهي تقول:
-أهو كلام الروايات دا اللي مطيّر عقلك..
تأفف حسن بنفاذ صبرٍ يُزيد من تأكدي أنه يخفي شيئًا ما وهو يقول بينما يحرك يديه بانفعال:
-بقولك إيه نرجع لموضوعنا أحسن من الهري دا كله، مفيش شغل وسهر ومرقعة بره البيت بيتك أولى بيكِ..
بنفس ابتسامتي المنكسرة وعيوني التي تغلّظ الأيمانَ أنها لن تكون سحابةً مدججة بزخّات المطر من جديد وصوتي الذي يُجاهد ليخرج بالرغم من تباطؤ دقاتي قلتُ باستهزاءٍ على نزعتهُ الذكورية:
-أيوة صح.. مينفعش أسهر في شغلي بره علشان مسخرة برغم إن أختك ممرضة زميلتي واقعد في البيت.. ليه بقى؟ علشان صُحابك يتحرّشوا بيا جوه البيت، أصل أنا متجوزة واحد بيحب نتمسخر في بيتنا براحتنا.. متجوزة قورني يعني.
كانت كلماتي الأخيرة كبنزينٍ ألقاهُ أحدهم على شُعلةٍ ضئيلة الحجمِ كانت على وشك الخُمود فقوى جسدُها وأحرقت المكان بمن فيه، وبقوةِ الانفجارِ العظيم جذبني من شعري الذي يبدو أن الجميع يكرهونه لدرجة جذبي منه كل دقيقتين وخبطَ برأسي زجاج "النيش" الذي كنا نقف بجواره، يكرر خبط رأسي بلا رحمةٍ بينما يصيح:

-قرني يا بنت الكلب.. قرني يا بنت الكلب.

لكني هذه المرّة وبرغم نبضاتي شديدة البطء إلا أني قاومتُ أن يتّشح كل شيءٍ من جديدٍ بالأسود، الأسود.. يبدو أنه لوني الذي سيرافقني طوال حياتي حتى يكون مصيري الأخير، كان خوفي من الموت نابعٌ في غمري بالسواد، أنا فتاةٌ تحب الخيارات الكثيرة، ترفض فرض الرأي عليها، ليس من العدل أن أحصر في قبرٍ أسودَ لأن حياتي على الأرض انتهت.. وإن كنتُ أخاف الأسود لماذا تخضّبت بهِ ملابسي مذ ماتت أمي؟! هل لأشاركها مصيرها الأسود؟!! قالوا أن الميّت يشعر بنا ويرانا.. ألهذا نرتدي الأسود؟ ليروا حزننا على فراقهم؟!

لماذا الكفن أبيض اللونِ برغم أننا نُطمر في التراب؟! ألهذا الحد نكره الأسود بالرغم من أنه مثوانا الأخير؟ من الترابِ الأسودَ خُلقنا، في الترابِ الأسود نتدثر حين موتنا، مصيرُ النائمينَ الانغماسُ في عالمٍ أسود، نتشاءم من الغربان السوداء، نكره الكلاب السوداء، ننبذ الأحصنة السوداء، نرهبُ القطط السوداء، نخاف سواد الليل وننتظر الشروق بفارغ الصبر، نتنمّر على سود البشرة، ننفرُ من السود عيونهم بينما يتغزّل بهم الشعراء ليلَ نهار، إن أصابنا القدر بسوءٍ نلقي باللوم على الحظ فنصفه على أنه حظٌّ أسود، حتى أننا نغيّر لون شعرنا الأسود فقط لكرهنا وهروبنا العظيم من ملك الحياة.. نهرب للربيعِ الأبيض دائمًا بينما يستمرّ الخريف الأسود في سحبنا لنمتزج به..

لنمتزج بحقيقتنا الوحيدة أن السوادَ يغمر داخلنا ولا مكان لبصيص نورٍ ولو ضئيل، حين نموت.. نعود لحقيقتنا السوداء داخليًا وخارجيًا! الدماء فاضت من وجهي بعدما رشقَ الزجاج بجانبه الأيسر، المريب أني لم أتألم.. لم أصرخ ألمًا برغم شكّي أني فقدت نور عيني اليُسرى، الذي فقدتُ قدرتي على الإبصار بها، ألمٌ حارق في وجهي، لم أعد أدرى منبع الألم هل هو وجهي المصاب أم قلبي المكلوم.. أمه مشكورة أطلقت عدةَ صرخاتٍ لم تخرج عن كونها رد فعل، لم تنتشلني من بين يديه، هو تركني أسقط أرضًا واختفى لا أدري لأين.. تذكرتُ "أمل" صديقتي الناجية التي أصبحت صديقتي منذ حريتها من الوغد الذي كاد يودي بحياتها وكيف أنها قاومت الانهيار من أجل نفسها وصغيرها وذهبت للمشفى بنفسها، قمت من على الأرض الباردة كجسدي، خرجتُ من المنزل وأنا أتسنّد على الحوائط كي لا أسقط فاخسر وعيي مع سقطتي، أمه تنادي عليّ من خلفي بينما نبرتها تقول بفجاجةٍ اذهبي بلا رجعة، شاورتُ بيدي المرتعشة لأول توك توك قابلني ولحسن حظي أنه كان فارغًا من الركاب، ذعر الفتى من دمائي السائلة، لكنه وافق على إيصالي للمشفى التي أعملُ بها، استغرق الطريق نصف ساعة حتى وصلتُ فاستقبلني حارسُ الأمن الذي كنتُ أبادله بصباحِ الخير يوميًا مرفقة بابتسامةٍ ودودة برغم كم بكائي الأمس وفي طريقي للمشفى، انتفض من مكانه واقترب

مني يجري وهو يصيح بنقالة الاستقبال لنقلي للداخل بسرعة بينما أتى "العم محسن" الفرّاش من خلفه جرّاء صراخه لعلّه يساعد تلك المسكينة التي ربما يكون سببًا في نجاتها قبل أن يشهق بصوتٍ مهزوز "عبير"!!!!

صاح الطبيب بممرضةٍ زميلتي بأن تجهز غرفة العمليات لاستقبالي حالًا، دلفتُ للداخل بينما بدأ يحاول هو بملقطٍ طبي استخراج الزجاج المتناثر بوجهي كحبات النمش، أقسم أن الدماء على وجهي زينتهُ بنمشٍ مدموم!

محمود.. صديقي الطبيب الذي رفضتُ حبه المشتعل لي، قلبه سينخلع من مكانه على حالي هو وعمّ محسن الذي يبكي أمامي حتى بللت الدموع كمامته ووجهه، أبلغت الممرضة محمود بنفاذ البنج من المشفى فالتفت لعمّ محسن يطلب منه شراء بنج من الصيدلية الموجودة بجوار المشفى لكني نظرتُ لمحمود قائلةً:

-خيّط على الحي..

نظر لي بدهشةٍ غير مصدق لطلبي، خرجت حروفه مهتزّةً من فرط قلقه:

-الجرح هيعوز ١٥ غرزة يا عبير إنتي بتهزري؟

-مبهزرش يا محمود، اعمل اللي بقولك عليه وإلا هروح بالجرح مفتوح.

وهممتُ بالفعل لمغادرة السرير الطبي فأوقفني قائلًا:
-خلاص خلاص، عِندك ولا هتشتريه! بصي أنا هديلك حقنة مهدئة وهخيطك زي ما إنتي عاوزة بس هعمل أشعة على العين الأول..
هززتُ رأسي بالموافقة فاقترب من طرف السرير الآخر العم محسن وأمسك بيدي لأضغط عليها لعلمه بخوفي المرضي من الحقن برغم كوني ممرضةً إلا أني لا أستطيع تحمّل الألم، نظرتُ له وظلت نظراتي معلقةً به بينما يقوم محمود بمهمته، لم أضغط بيدي على يدهِ الممسكة بي، تركتُ جسدي يستشعر كل ذرةِ ألمٍ حتى النهاية، لا أفهم المغزى من ذلك الآن ولن أشغل بالي بتعقيدٍ أكثر من ذلك، يكفيني ما أنا فيه وما إليه وصل حالي، انتهى محمود، أعطاني الحقنة بالفعل.. هم عم حسن ليدثرني بالغطاء فطلبتُ منه بهمسٍ أن يظلّ بجانبي حتى أستيقظ، سحب كرسي وجلس بجواري وأمسكَ بيدي من جديدٍ حتى أكل مفعول المهدأ الذي اتضحَ أنه منوّم إدراكي فغططتُ في نومٍ عميقٍ توقف فيه كل شيء.. أخيرًا.
صوتهُ أقلق راحتي فبدأت أهمسُ بألمٍ أني لا أريدُ أن أراه.. لا أريد سماع صوته، أبعدوه عني أرجوكم، بدأ العم محسن يربّت على بدي بحنوٍ جعلني أفتحُ عيني ببطء، ثقيلةٌ هي جفوني وكأن أثقالًا من الحديدِ مثبتةٌ بنواصي رموشي، سارع الألم للوقوف في مغارة الجرح ليستعدّ لإتحافي بأحلى سيمفونيةٍ أليمةٍ ستطرب لها أعصابي، نظرتُ

أول شيءٍ لسقف الغرفة ثم نقلتُ بصري بصعوبةٍ للعم محسن الذي ينظر لي بقلقٍ جليّ، همستُ له وأنا لا أشعر بوجهي ولا بلساني الذي يتحدث:

-علشان خاطري.. لو بتحبني متتصلش عليه ولو جه متدخلوش عندي أبوس إيدك..

بدأت دموعه في الانزلاق على خديه من جديدٍ بسببي وهو يقول مطمئنًا:

-مش هتصل بأبوكي متقلقيش، أنا هتصل على حسن أطمنه بس ليكون متوغوش عليكي..

نظرتُ لهُ بأسى وأنا أهدأ نفسي حتى لا أبكي:

-أنا قصدي على حسن.. حسن يا عم محسن!

نظر لي باندهاشٍ فاغِرٌ فاهُ.. الرجل الوحيد الذي أحببتهُ وأعطيته قلبي بعد جدّي، الرجل الذي نزعتُ من أبي شعوري بأبوتهِ تجاهي نزعًا من شدته تناثرت الدماء وبقى مكان النزعةِ فراغٌ في جسد أبي البيولوجي وروحه كثقبٍ أسودَ كأفعاله.. ووضعتها في عم محسن.. أبي الذي عطفَ عليّ وراعاني وقلق عليّ في أشد أوقاتي احتياجًا لرفيق يأخذ باله مني ويرعاني أنا الضعيفة المغلوبة على أمرها.. تراكمت الدموع بعيني حين نظرتُ لعينيه، كان ينظر لي فيعرف من جرّاء نظرته العطوف أني لستُ بخير، الرجل الذي رافقني في انتصاراتي

الصغيرة ومسيرتي المهنية الطويلة نسبيًا.. من ربّتَ على كتفي حين أصابني الضعف، من مدّ لي يدهُ حين سقطت، من واراني بجسدهِ حينَ أصاب البردُ جسدي مدثرًا إياي بحضنه الذي أكونُ فيهِ كعود قصبٍ في أحضانِ باندا دافئة.. حنونة..

جلس بجواري من جديدٍ قبل أن أسحبَ يدي لأتحسسَ تلك الضمادة الطبية الكبيرة التي تزيّن نصف وجهي بعيني اليُسرى، استغربتُ ذلك فالجرح بعيدٌ عن عيني لكني شعرتُ بالبرد وبدأ جسدي ينتفض، لاحظتُ كانيولا بيدي الذي كان يمسكها موصلٌ بها محلول، بدأ بالحديث لطمأنتي وهو يجلب غطاءً إضافيًا لتدفئتي:

–ضغطك واطي وسوء تغذية.. إيه ال وصل عروستنا لكل دا؟

حاولتُ النهوض فساعدني واضعًا الوسادة خلف ظهري، نظرتُ ليدي الساكنة على جسدي بلا حراكٍ بينما يسري بها المحلول الملحي المغذّى بالفيتامينات، ماذا كنتُ أنتظر غير الذي وصلت له، بدأتُ الحديث:

–طول عمرك جمبي يا عم محسن وعارف بلاويّ كلها، دخلت تمريض وأنا عارفة إنها بهدلة جامدة وبيات بره البيت، كنت عاوزة أشتغل علشان أبعد عن تحرش أبويا.. اتجوزت لقيت نوع جديد من التحرش، جوزي ساب صحابه يتحرشوا بيا، جوزي قليل الأدب والحيا اللي قال لصحابه هو عمل معايا إيه يوم الدخلة.. اللي كان أسود يوم في حياتي حرفيًا.. جوزي سادي، مراعاش رينا فيا يا عم محسن..

أنا تعبانة، روحي اتهلكت في صراع مش بتاعي ولا أنا قده.. ليه حظي كدا؟ ليه اتحكم عليا أكبر قبل أواني وأعرف حاجات مكنش ينفع أعرفها.. أنا كنت طفلة يا عم محسن، مجرد طفلة على كل اللي حصلي دا، ربنا مش حاسس بيا ليه طيب؟ عارفة إنو بيختبرني وبيقولوا بيختبرنا على قد قدرتنا بس والله أنا ما عاد فيا حيل..

كلماتي كان وقعها قاسٍ عليه، بكى هو بدلًا عني.. مالي طاقةٌ على البكاء حتى، جسدي يؤلمني بشدةٍ.. حتى عقلي.. بدأ يتركني، أشعر باقتراب إصابتي بالجنون، سأرفض تصديق الواقع فإما سأصاب بالانفصام أو سأفقد عقلي تمامًا لأصبح في عِداد أصحاب العقول في راحة تامة.. همّ ليتكلّم عم محسن فقاطعه دخول "محمود" ومعه صينيّة طعام بيتي الصُنع، ووضعهُ أمامي، على وجهه ابتسامة تبعثُ الراحة والسرور على قلبي، تحدّث بهدوءٍ مَرِح:

-إنتي بتنسي تاكلي زي عادتك بس أنا كالعادة مبنساش، يلا يا ست عبير بلاش دلع ويلا علشان أأكلك ولا هتاكلي لوحدك؟

نظرتُ له بصمتٍ بينما تحدث عم محسن موجهًا حديثه لمحمود:

-لا يا عم محمود، عبير مش صغيرة هتاكل لوحدها..

لكنّه لم يكمل جملته بينما تعلّق نظرهُ بالخارج واندفع من فوره للخارج مما أثار قلقي وحفيظة محمود فقام من مكانه لكنه لم يستطع الابتعاد فقد دلف عم محسن للداخل من جديد لكنه بصُحبة حسن

الذي يتطاير الشررُ من عينيه، جلس محمود مكانه من جديد وهو يأخذ قطعة من الدجاج المسلوق ويقربها من فمي لألتقطها بالفعل قبل أن ألحظ دخول حسن بينما تخللت رائحتها الشهية لرئتاي مما فتح شهيتي وهو يقول بلا مبالاةٍ مصطنعة:

-مين اللي معاك دا يا عم محسن، مش تعرفنا على اللي جاي يزور عبير!!

ردّ حسن بصوتٍ عالٍ وبطريقةٍ همجية جعلت بطني تتقلص بينما انتفض جسدي رعبًا منه وتوقفت اللقمة بحلقي:

-أنا جوزها يا بيه.. جوزها اللي الهانم بتقرطسه وقاعدة هنا بتتمايص مع راجل غريب وهي مفيهاش حاجة..

قام محمود ناظرًا له ببرود بينما خرجت كلماته هادئةً بشدةٍ لاستفزاز حسن أكثر:

-معلش سامحني.. أصل مش باين على عبير إنها مدام خالص، عبير عندها سوء تغذية وهبوط حاد في الدورة الدموية وجيالنا المستشفى بجرح ف وشها ومن الواضح مين اللي اتسببلها فيه، فأنا بأكلها علشان لما الظابط ييجي ياخد أقوالها تبقى قادرة تتكلم وترد عليه، مهو مستحيل ناخد كشف حكيم لجرحها والكدمات اللي في جسمها وهي هفتانة كدا، أصلها يا عيني مكلتش بقابها كذى يوم..

انقضّ عليه حسن مسددًا لمحمود لكمةً في وجهه، حاول العم محسن

الفض بينهما بينما اشتبكَ الاثنان في عراكٍ لم يقوى على قوته العم محسن العجوز المسكين فسارع لطلب الأمن، فضّ الأمن بينهما بالفعل فاقترب حسن مني ساحبًا إياي من ذراعي بينما انتزع الكانيولا بوحشية من يدي وجرّني وراءه مغادرًا، صاح محمود بالأمن لإيقافه فرفضوا لخوفهم من حسن المتولي ويده الطائلة التي قد تتسبب في قطع عيشهم من المشفى أو إيقاف حالهم وأذيتهم.. صاح بهم محمود بقهر:

-ما هو مش معقول محدش قادر عليه دا خد البنت وهي تعبانة!!!!

*****

ألقاني بداخل الشقة من يدي بعد أن وصلنا بسلامةٍ عجيبةٍ بعد قيادته الجنونية، أغلق الباب بعنفٍ بينما التفتُ أنا لدخول غرفتي، أشعر بوهنٍ فظيع، صوته ذا التردد الحاد الذي آلم أذني هزّ سكون المكان:

-لما سواق التوك توك جه قالي إنتي سايحة ف دمك خفت عليكي وجيت عليكي جري علشان ألاقي الهانم سامحة لراجل غريب يأكلها ف بؤها وهي زي البمب مفيهاش حاجة.. انطقي يا بت في إيه بينك وبينه!

نظرتُ له بلا مبالاةٍ مزيلةً تلك النظرة بصمتي، اقترب مني ممسكًا يدي وهو يهزّني بعنف:

-ردي عليا بدل ما اقتلك!

ذيّل جملته الأخيرة بتحريره ليدي داسًا يده في بنطالهُ مخرجًا مسدسًا لم يكن لُعبةً لترويعي، لقد كان حقيقيًا كحقيقة كون هذا الخسيس زوجي، وضعهُ على قلبي غارزًا إياهُ بعنفٍ أوجعني لكني لم أنبت ببنت شفة، لم تتحرك رموشي حتى. أنا فقط ساكنة وهو لم يترك جملة "انطقي.. في إيه بينك وبينه انطقي"

-اقتلني وخلّصني من العذاب اللي أنا عايشة فيه دا..

كانت جملتي الأخيرة أمنيةً حقيقيةً لا ابتذال فيها ولا خوف، يا سلام لو يتهوّر وتخرج تلك الطلقة من فوهتهِ الباردة لتخترق قلبي وجسدي وأقع جثةً حرةً من الجميع!

-عذاب!! إنتي لسه شوفتي عذاب!! دا أنا هوريكي النجوم في عزّ الضهر، وآدي دقني إن عتي خرجتي تاني أو لمحتي الشارع..

كان قلقان عليكي كدا ليه؟ في إيه بينك وبينه يا بت انطقي..

ضحكتُ باستهزاءٍ مُردفةً:

-إيه دا!! إنت طلعت بتشك وبتغير وعندك دم.. كان فين دا لما صحابك اتحرشوا بيا؟

نظر لي بغيظٍ كتمهُ ثم ألقى جسدي أرضًا دافعًا إياه بفوهة مسدسه.. جسدي الذي أصبح كريشةٍ تعصفُ بها الأجواء حيث تشاء بلا التفاتٍ لرغبتها وخرج وهو يقفل الباب بالمفتاح معلنًا حبسي في تلك الشقة المقيتة لتُصبح سجني حرفيًا!

ديمشلت.. بلد السلاح، لم أستغرب حيازته لهذا، بل كنتُ أظنه يملك الكثير، ففي بلدنا إن قال أحدهم السلام عليكم لشخصٍ ما وردّ ردًا لم يعجب أحدهم سحب مسدسهُ وأطلق النار فورًا على صاحب الإجابة الباهتة، الموت عندنا كسهولة نطق أحدهم للسلام عليكم..

*****

مرّ يومان لم يأتِ فيهم حسن للمنزل، ارتاح بالي لبعضِ الوقت بينما ازداد حال جسدي في التدهور لعدم اقترابهِ من الزاد مذ آخر قطعة دجاجٍ أكلتها في المشفى، قمتُ من سريري سامحة لجسدي بقليلٍ من الحرية لأصنع لي طعامًا، أنهيتُ تحضيره بطلوعِ روحي وساعدتني أمي.. أخذتهُ في لحظةِ صفى وذهبتُ لتناول طعامي في الشرفة بهدوءٍ بينما تداعبني أشعة الشمس الدافئة في نهارِ طوبة شديد البرودة، تناولتُ طعامي تنا وأمي بهناءٍ وهممتُ واقفةً لجمع الأطباق لكن لفت انتباهي وقوف الجيران ناظرينَ إليّ بفضولٍ بينما تتهامس السيدات وتتلامذن بخبث، لكني لم أسمح لذلك بتعكير مزاجي الهادئ إلى حدٍ ما، دلفتُ للداخل لأعد كوبًا من القهوة التي تلذذتُ برائحتها في أرجاء المنزل على مهلٍ أثناء نُضجها البطيء بينما بحثتُ عن روايتي التي لم أكملها يوم واقعة التحرش، وجدتها وأحضرتها ودلفتُ للشرفة من جديد لأقرأ فيها بينما أتلذذ بقهوتي الساخنة جدًا.. أنهيتُها وأنهيتُ قهوتي وانتهت ساعاتُ تريّضي في الشرفة فدخلت لغرفتي لأنامَ بهدوء

ودلفت أمي من ورائي، يبدو أن سباتي الشتوي سيطول ويروقني ذلك في ظلّ اختفاء الثعلب حسن.. الذي تمنيتُ لو كانَ الشاطر حسن! واستيقظتُ لأجد شعري المحلوق بجواري وأمي كالعادةِ اختفت..
-آدي آخرة وقفتك في البلكونة بشعرك اللي كنتي فرحانة بيه أوي.. لما الجيران اشتكوا من خروجك بشعرك أنا طبعا قولت لابني حبيبي علشان يقوم بالواجب، وأنا بصراحة نصحته وقولتله إنك مغرورة بسبب شعرك دا واديتله مكنة الحلاقة بتاعته وهو مقصرش حبيب أمه.

نظرة الصدمة من ابنتها كانت كفيلة لإرجاعي للواقع بعدما من شدة هول الموقف كنتُ في حالة هيستيريا، علمتُ أن لحظات سعادتي لن تدوم مهما حدث، لقد كافئني اللّه بأيام من الراحة لأستعد لما سأواجهه فيما بعد.. لم أكن أدري ماذا عليّ أن أفعل وبماذا أرد على هذا الشمطاء، لماذا لا تتركني أعيش في سلامٍ هي وابنها؟! عقلي يرفض التصديق.. جسدي لن يتحمّل تبعات هذه النكسة، كيف سأعيش!! أنا بلا شعرٍ الآن.

التفتّ باحثةً عن ماكينة الحلاقة التي استخدمت لجزّ خصلات شعري العزيز جدًا، يبدو أنهم يغارون منه.. الجميع جذبَ وشدّ فيه وكأنهم ينتقمون منه.. لن ينتهي البؤس.. صدق محمد طارق كاتب الرواية في كتابة تلك الجملة، حياتي مليئةٌ ببؤسٍ لن ينتهي مهما حاولتُ التملّص

منه، لذلك سأعيشهُ على أكملِ حزن!

الماكينة ترقد في هدوءٍ على طاولة المرآةِ وكأنها لم تُنهي حياتي حينما اهتزّت بغدرٍ ساحبةً بسنونها شعري.. فتحتها، اهتزّت بعنفٍ مُصدرةً صوتها الذي سيتحوّل داخلي منذ اليوم لفوبيا لن تنتهي مهما حييت، جلستُ على الكرسي أمامَ المرآة وبدأتُ بحلقِ ما تبقى من شعري بلا قطرةِ دموع، خارجي ثابتٌ كالجليد وداخلي اللاقا تثور، بكت أخت زوجي "منار" ورحلت تجري وهو تقول مرددةً:

-كدا كتير والله.. كدا كتير!!

معها كل الحق، أتآمر القدر والكون عليّ لإذلالي؟! لا أجدُ تفسيرًا منطقيًا لما يحدث.. كنت أعلم أن الحياةَ ظالمةً لكنني لم اكن أدري أن ظلمها سيكون مؤلمًا لهذا الحد، ألا رحمةَ في قلبها؟! إن حياتي بمآسيها لم تكتب في الرواياتِ حتى ولو كانت.. لكانت الأكثر بؤسًا مُذ نشأ الأدب!

انتهيتُ ومع كل خصلةٍ تسقط من رأسي تبتسم حماتي أكثر فأكثر ابتسامةً تشوبها دناسة المراحيض، انتهيت وانتهت معي حياتي، شعرت لوهلةٍ أن الشتاء في قلبي ومعهُ نارُ جهنم بلا أدنى مبالغة.. جسدي باردٌ وفي أقل من الثانية تصيبني السخونة الشديدة التي كن فرطها تنقطعُ أنفاسك.. نظرتُ لنفسي في المرآة، لقد حولوني لمسخ!! شوهوا وجهي وجمالي، جدي كان يقول دائمًا أن تاجُ الفتاةِ هو شعرها لذلك

كان ممنوعًا علي أن أقصه، ذهبت ورحلَ لكَ شعري الآن يا جدي، اااهٍ لو كنت هنا لما تمكن أحدٌ من النظر لي حتى، قمت من مكاني آخذةً معي منشفةً ودلفتُ للحمام وسط نظراتها، فتحت مياه الصنبور الباردة فوق رأسي الحليق وعلى جسدي في طوبة، لم أشعر بأي شيء، أنفاسي الدخانية تخرج من فمي دلالةٌ على برودة الجو بينما تعطلّت حاسة الشعور لدي، المياه تغمرني بشدةٍ آخذةً معها شعري المنثور على جلدي، أقفلتُ الصنبور، لففتُ جسدي بالمنشفة، لم أجفف جسدي أنا فقط واريتهُ، وخرجتُ لأكمل ملابسي لكنها وقفت حائلًا بيني وبين الدخول لغرفتي..

-يلا يا هانم على تحت علشان تنزلي تخدمي تحت.. وكل يوم الساعة ٧ الصبح يكون الفطار جاهز وتصحيني أفطر وشغل البيت كله يكون خلصان..

لماذا يستفز هؤلاء القوم صبري، لماذا يريدون مني نسختي السيئة؟ إن سببتها الآن أسيعاقبني الرب على فعلتي؟!! عقاب.. لماذا لم يعاقبها هي وابنها إذًا.. تحدثت بثباتٍ قائلة:

-أنا تعبانة ومش هخدم حد، وحتى لو مش تعبانة عمري ما هخدمك، أنا جاية هنا كـ "زوجة" مش كـ "خدامة" ف حاسبي على كلامك وابعدي عن طريقي..

أزحتها بيدي لأدلف للغرفة لكنها لم تتحرك وظلت في مكانها بثباتٍ

بدأ يُضايقُني بشدةٍ وعقلي يبحثُ عن حُجةٍ لأنفجر، قالت وهي تهز كتفيها:

-والله دي عوايدنا وسلو بلدنا وأهالينا، معلش العتب مش عليكي العتب على أمك اللي معلمتكيش الأصول.

صفعةٌ دوت في الأجواء تلاها صمتٌ رهيب، كانت هذه يدي التي هزت ثبات جسدها واحمرّ وجهها من أثر صفعتي:

-أمي بنت أصول من بيت أصول ربوهم ميبقوش خدامين، ربوهم إنهم مسلمين متبعين دين محمد مش دين مجتمعهم، ربوهم إن أصل الزواج هو الاستمتاع مش خدمة أهل الزوج وإنها لو تفضّلت وخدمت زوجها برغم عدم وجوبه عليها تؤجر على فعلتها، علموهم إن الراجل مبيضربش ست ولو ضربها رجولته بتنزل الأرض وبيتداس عليها بجزمنا، بلوا عوايدكم دي واشربوا ميتها، وإياك تتكلمي ربع كلمة على أمي لاقطعلك لسانك الزفر دا، فاهمة!!

كنتُ أعلم أنها لن تسكت على فعلتي هذه أبدًا لكني لم أتخيّل أن تجذبني من منشفتي، الشيء الوحيد الذي يستر جسدي وتستمر بي دفعًا وسيرًا حتى باب الشقة، وأكملت دفعها حتى سقطت على درج السلم، أحسستُ بشللٍ أصاب جسدي، اختل توازني وانبطحتُ أرضًا قبل أن تأتي وتُكمل بي نزول الدرج وهي ممسكةٌ بي من منشفتي تسحبني خلفها، فقدتُ وعيي من شدة ارتطام جسدي بالدرج وأنا

أصرخ من فرط الألم، لا أدري متى انتهى مشهد التعذيب هذا، حتى الأسرى يعاملون معاملةً حتى وإن كانت قاسية فهم يستحقون بعض الشيء لكن ماذا فعلتُ أنا بحق السماء لأستحقّ عليه جل ما يحدث لي.. أتمنى بحقٍ أن تكونَ مِيتتي الأخيرة وليرقد جسدي في سلام، في سلامٍ بحضرةِ السلام!

*****

عمّ محسن من جديد يجاورهُ محمود، أيعقل أن كلّ ما حصل لي كان حُلمًا ولم أغادر المشفى بعد؟ أو ربما فارقت روحي جسدي وأنا الآن أراقبهم من بعيدٍ وأتحسّر على شبابي الذي ضاع، أم أن كل ما مررتُ به هو كابوسٌ بشعٌ لأن أمي لم تنم بجانبي ليلة أمسٍ تتلو عليّ تهويدة النوم!! أمن الممكن أن أستيقظ فزعةً أنادي عليها فتجيبني!! يا إلهي لو تحقق هذا لن أترك حضنها حتى أشيخَ ولن أبرحَ تقبيل يديها وشمّ رائحتها التي حرمني منها الكابوس، حرمني من كيانها، من بسمتها وصوتها الحنون، ملاكٌ في هيئة إنسان هذه هي أمي..

دققتُ النظر لأكتشف وجود محمود الذي ينظر لي بقلقٍ عارم، ماذا حدث ليستدعي كل هذا القلق الذي يقطِرُ من عينيه.. لحظة.. أهذهِ دموع!! العم محسن يبكي كعادته منذ عرف قصتي لأول مرة، قصتي قوّمت حياة العم محسن، فاتقي الله في زوجته ورعاها وحنى على بناته وعاملهن أحسن معاملة، تمنى لو تركتُ بيت أبي وذهبت للسكن

معه، لكن ضيق المعيشة كان كفيلًا بجعلي أرفض متحججة بأن الناس سيأكلون وجهي بلا شفقةٍ وأنه من الأفضل أن تعيش زوجته وبناته بحريةٍ بلا عائقٍ حتى لو كانت فتاةً مِثلهم!

حاولتُ تحريك رأسي فلم أستطع وكأن عمودي الفقري قد أصابهُ الصدأ، ربّت العم محسن على كتفي يحنانٍ لكن مالي أشعر وكأن يده بثُقل الكون، حاولتُ تحريك جسدي فلم يُطاوعني..

-إهدي بس يا بنتي إنتي لسه فايقة من غيبوبة.. إهدي وهفهمك كل حاجة..

كلمات العم محسن توحي بوقوع كارثةٍ ما لي، أية غيبوبةٍ يقصد وما الذي حدث لأصل لتلك الحالة! قلقُ محمود يُشعرني بالذنب، أحقًا نحنُ نرضى بمن يعذبوننا ونقطع كل حبال الوصل بيننا وبين من يحبوننا بصدق؟ ماذا دهى عقلي لأترك هذا الشاب الهائم بجنون عشقي وأذهب لمن لم أرتضيه حبيبًا! أكان شرط زواجي ألا يكون عن حبٍ حتى لا أتعلّق برجُل أم كان نابعًا من كرهي الشديد لصنفهم؟ ابتسمتُ له بحزنٍ وسط حالة التعقيد الذي ينتشي بها عقلي الآن، حقًا هو الوحيد الذي أراهُ وسط دواماتِ تفكيري الطاحنة، لا يا قلبي.. لقد صدأت تروسك وتعطّل سريانُ المشاعر فيكَ وانتهى عمرك الافتراضي، لن نتحرك من أجل رجل، لن يحدث مطلقًا..

صوته دافئٌ بشدة، يتحدث وأنا ناظرةٌ له أتأمل تفاصيلهُ المنمّقة،

وجهه المستدير الممتلئ نسبيًا كجسده، طوله الفارع وكاريزمته التي تطغى على الأجواء حين يكون في الأرجاء، ابتسامته الجذابة جدًا ونظاراته الطبية التي تنسابُ لبداية أنفهِ فيدفعُها من جديدٍ لمكانها، يحدث هذا الدفع تسعة آلاف مرة في الدقيقة، لطالما تمنيتُ لو أرى عينيه بلا زجاج تلك العدسات لكن كساني الخجل والخوف من سحب تلك النظارات من على وجهه، حركة يديه التلقائية التي يمررها على شعره المجعد الأشعر حين يشعر بالحرج مني، لم يفعل تلك الحركة أثناء تواجده مع أي أحدٍ قط، يفعلها الآن وهو يسأل عن حالي..

لم أجب أنا فقط نظرتُ بفضولٍ ففهم من فوره أني أريد معرفة ما حدث، معرفته لرغبتي أثار غرابتي، فأكمل وهو يطلب من عم محسن أن يُحضر بطانيةً أخرى لأن الجو بارد وهو يطمح لتدفئتي، انا لا أشعر بالبرد من كمّ البراكين الثائرة بقلبي.. لكني كنتُ أفضل مجاراته..

-منار.. أخت جوزك جابتك المستشفى هنا ملفوفة ف بطانية بعد ما طلبت الإسعاف وكانت منهارة من منظرك..

أصابتني صعقةٌ من الشخص الذي ذكر اسمه، منار!!! منار التي لم تحبني يومًا حتى من قبل أن أتزوج أخوها؟ كيف ولماذا؟!! أأشفقت عليّ من معاملة أمها وأخوها لي لذلك كانت تنظر لي بحزن؟ قاطع تفكيري هازًا رأسه:

-أه منار، وكل شوية طول اليومين كانت بتيجي تطمن عليكي وتمشي..

بس قوليلي يا عبير، هو باباكي فين من كل دا؟!

نظراتي المتعلّقة بوجهه تراخت وانكسرت ناظرةً لجسدي الممدد على سريرٍ من أسرّة المشفى الباردة من دفء الحياة، برودتها تضاهي برودة سحب الروح من الجسدِ وزيادة.. فأنت في الأساس ممددٌ تنتظر ملك الموت ليحنو عليك بنهايةٍ غير مؤلمة.. لكنّ كل النهاياتِ مؤلمة بتفاوت النسب، فتدخل عم محسن لينقذني من واقعي المخزي وبشدة قائلًا وهو يضحك بخجل:

-أكيد ميعرفش اللي حصل يابني وإلا كان زمانه هنا جمب بنته..

-علشان أبويا متحرش..

كلمتي جذبت رأسيهما لينظرا لي بدهشةٍ أحدهما تقول لماذا بُحتِ بسرك يا صغيرتي والأخرى تقول ما هذا بحق الجحيم! لكم محمود سبق الجميع برده علي قائلًا:

-متحرش بمين؟ ودا إيه دخله بإنه مش موجود؟

نظراتي مازالت متعلقة بجسدي ولساني يتحرّك رغمًا عني وكأن روحي لم تعد تُطيق صمتًا ومواراةً لعارٍ ليس لي فيه دخلٌ أصابني أنا وجسدي..

-أبويا بيتحرّش بيا أنا من وأنا طفلة، علشان كدا اتجوزت علشان أخلص من قرفه وعلشان كدا هو مش هنا، لولا الملامة كان رماني في الشارع لكلاب السكك ينهشوا لحمي.. أو بقايا لحمي اللي نهشه هو.

قاطع حديثنا دخول منار المُباغت للاطمئنان على مريضتها التي فاقت أخيرًا من غيبوبتها قصيرة المدى، لهفتها على حالي كانت صادقة للحد الذي جعلني أدمعُ وأنا ناظرةٌ لتفاصيل وجهها القلوق، اقتربت لتقيس ضغطي ومؤشراتي الحيوية ومدى استجابتي لما حولي لتتأكد من سلامتي، تنحنحت بحرجٍ وهي تقول بصوتٍ هامس كان كافيًا لأسمعها وحدي:

-أنا بعدت عنك حسن وهددته إني هعمل فيه بلاغ بمحاولة قتل فيه هو وأمي..

نظرت أسفل أقدامها بخزيٍ جلي..

-مليش ذنب بعمايلهم.. متاخدنيش بذنبهم، أنا بحاول أعوض سكوتي عن عمايلهم، إنتي طيبة وبنت حلال ومتستحقيش كل دا..

أنا جبتلك الطاقية دي أنا غزلتها بإيديا لما كنتي في الغيبوبة، علشان مينفعش تفضلي براسك كدا وحد يشوفك، خسرتي شعرك بسبب أهلي بس كسبتي طاقية مغزولة ليكِ مخصوص بكل الحب..

لعبت في أناملها بتوتر..

-ولو حابة أشهد معاكي هشهد وهقول كلمة الحق..

لم تنظر لعيناي، قامت من مكانها.. نظرت لمحمود نظرةً خاطفةً أنا أعرفها جيدًا وخرجت مسرعةً حتى غابت عن أنظاري بينما أتى محمود الذي لم يلحظ شيئًا ليجلس مكانها ليسأل ما دار بخلده

بفضول:

-هما اللي حلقولك شعرك؟!!

لكن عم محسن طلب منه تركي لأرتاح فيكفي للآن ما صرّحتُ به..
يكفي وبشدة ليتخيل عقله بقية الأحداث!

*****

لم يأتي حسن بالفعل كما وعدتني منار وحان وقت مغادرتي لتلك المشفى بعدما قضيتُ فيها يومينِ آخرين لأتعافى ولو قليلًا لكني لا أشعر بأي تحسّن، لملمتُ حاجياتي التي اكتشفتُ أنها المنشفة التي كنت أرتديها وقتما تشاجرتُ مع حماتي، عليها من اللّه ما تستحق هي وابنها الذي لم تربّه ولو لعشرة دقائقٍ حتى! كنتُ على علمٍ تام أن تنشئة الفتاة الصعبة هي التي تحدد هوية وشخصيات أولادها، ربما مرّت بطفولةٍ صعبة مثلي.. لكني لم ولن أفعل هذا بأولادي.. وفي ظل غياب دور الأب في تنشئة وتربية الأولاد يدًا بيدٍ مع أمهم سيظلون يفتقرون لجزء كبير لن يتم تعويضه بوجود الأم فقط، الرجل يتزوج، بعد شهر واحد نسمع خبر حمل الزوجة التي استهزأ بها الجميع لتأخّر حملها مع مزايداتٍ بشعة من قبيل أنا حملتُ بعد أسبوعٍ واحد وأخرى تقول أسبوعان وهي تشعر بالخزي لأن أخرى سبقتها وكأنه سباقٌ عليهم الفوز فيه! تلد الزوجة يتأفف الزوج من تأخر علاقتهما الحميمية في ظل رعايتها للطفل بالإضافة لمهام البيت التي لا تنتهي من طبخٍ وغسلٍ

وترتيب وكنس إلى آخره من الأعمال التي لن تستطيع إلا زوجة خارقة من الإلمام بجميعم مع طفلٍ لا يكفّ عن التغوّط والبكاء، يتذمر ويبدأ بالشكوى من ابتعادها عنه ولو قصّرت في خدمة بيتها سيبدأ بنصب صوان علاقتها ونشر غسيلهم للعالم والناس، كيف لا ترعاه هو وتترك الطفل الرضيع!! هو زوجها وله عليها حق وواجباتٌ يجب أن تقدّمها بخضوعٍ وألا تتأخر عن ذلك حتى لو كانت على وشك الانهيار من شدة التعب، لا يتحدث معها، لا يسمع لشكواها، لا يطيب خاطرها، يضربها ويتلفّظ بألفاظٍ بذيئة لها أمام الأطفال ولا يخشى على نفسياتهم البريئة من مشهد ضربه لمصدر أمانهم الوحيد الذي ومن المؤكد سينضج الأطفال بأمراضٍ نفسية لن يقدروا على تخطيها، لكن من العيب أن يعبر عن حبه لها أمام أطفاله.. هذا عيبٌ يا رجل "متبقاش قليل الحيا أومال"

من تناقضات مجتمعنا المؤلمة اكسر للفتاةِ ضلعٌ سينمو لها أربعٌ وعشرون لكن إياك أن تجعل أحد يلمح حبك لمرأتك في عينيك وإلا انتقصت رجولتك، كلما علا صوتك وتجعدت ملامحك وضربت وعنّفتَ كلما أصبحت رجلًا أكثر..

في بعض الأحيان تكون الأم هي السبب في تنشئة دكر بط عديم الرجولة للمجتمع ويظل هو يكرر ما تعلمه مع أولاده وأولاده من بعده مع أولادهم وهلُمّ جرّة، بعد جيل أو اثنين ستجد أنك تعاني أيها

الإنسان الطبيعي الذي تمت تربيتك على أن تكون رجلًا تحترم آدمية أنثاك وتدليلها كما تستحق من دكر البط الذي سيبدأ بالسخرية من أخلاقك ووصفها بأنك "دلدول الست" وسيبدئون بتوجيه النصائح من قبيل "ما تسترجل يلا أو احكمها واشكمها" أو الحقيقة الأسوأ أنهم سيتحرشون وسيضايقون أنثاك المدللة لأنهم لم يتربوا على أن الأنثى إنسان إنما هي خادمةُ متعة ولا حق لها لا بتعليمٍ ولا بميراثٍ ولا بعملٍ ولا بحياةٍ كريمة تكون فيها سيدة نفسها وقراراتها، لا يحق للأنثى اختيار الحياة التي ستعيشها يا عزيزي.. أين نحن إن اختارت هي؟

في حالة حماتي.. هي السبب في أن يكون ابنها هكذا، حماتي لم تربّي، هي خلقت مخلوقًا كاسرًا لم يغترف من كأس الرجولة قطرة، هي الأخرى يبدو أنها لم تتلقى أي تربية أو تلقتها بشكل عنيف جعلها بما هي عليه الآن..

دلفت منار لتتأكد من انتهائي من تجهيز نفسي بعدما احضرت لي بعضًا من ملابسي لارتدائها، طلبتُ منها أن تأتي وتجلس بجواري ففعلت بابتسامةٍ هادئة، نظرتُ لها مطولًا قبل أن أزفر توتري في تنهيدةٍ طويلة، سألتها عمّا حدث لي بعدما جرّتني أمها على درج المنزل فأجابت بحزنٍ كسفَ على ابتسامتها فخبت:

-أمي جرجرتك وراها على السلالم ونزلت رمتك في وسط الشارع

وسابتك وطلعت..

انخلع قلبي مما قالت، رمتني شبه عارية في الشارع أمام الناسِ والمارة!! ألم تخشى الله قط؟! تباطأت من جديدٍ دقاتي، ضغط دمي يحضر وبشدة هذه الأيام لمشاركتي أحداثي التي لا يصدّقها عقل، تساءلتُ وأنا أخشى جوابها:

-منار أنا كنت متغطية بالفوطة صح!! جسمي مكنش باين يا منار صح!!

نظرت للأرض واغرورقت عيناها بالدموع..

-الناس فضلوا يتفرجوا عليكي في الشارع وانتي مرمية كدا ومغمى عليكِ لحد ما واحد ابن حلال جاب بطانية من بيتهم وغطاكي وفضل يزعق في الشارع ويشتم أمي واللي عملته فيكِ فسمعته وطلعت جري لقيته لَفّك وبيطلب الإسعاف علشان كانوا شاكين إنك مُتّي.. مكنش في نبض، نزلت جري بلبس البيت وخبيتك من كل الناس في حضني وفضلتي في حضني لحد ما الاسعاف جه ونقلناكي على هنا..

صمتت لبرهةٍ قبل أن تكمل بندم خضّب حروفها..

-أنا آسفة على اللي حصلك.. آسفة إني مش قادرة أغير شيء في قصتك..

كدتُ أبكي لكنّي لم أفعل خوفًا من نقضي لعهدي..

-إنتي خبيتيني وقتها في حضنك.. ممكن تعمليها مرة كمان!

أجهشت في البكاء وهي تدثرني في حضنها، أغمضتُ عيناي بأسىً شديد، تمنيتُ لو بكيت حتى أبلل كلابسها وتتحرر آلامي لكني اكتشفتُ أني فقدتُ قدرتي على ذلك، تيبّست أنهارُ مقلتاي وخُضّبت بالقسوة، حررتني أخيرًا بعدما ربّتُّ على ظهرها لتهدأ، مسحت دموعها بيديها وهي تضحك قائلةً:

-عارفة يا عبير.. طول عمري كنت بغير منك اكمنّك محبوبة من الكل حتى من..

صمتت ولم تقوى على الإكمال فأكملتُ أنا من حيثُ بدأت هي:

-حتى من محمود.. اللي إنتي بتحبيه.

نظرت لي وهي مفنجلة العيون من معرفتي لأمرٍ لم تُخبر به أحدّا قط، لكن نظراتها له يوم عدت للحياة كانت كفيلة بإخباري كل شيء، تأتأت قائلة:

-إ إنتِ عرفتي منين؟!!

-من نظراتك ال فضحاكي.. وطبعا سبب غيرتك خلاكي تعامليني وحش السنين اللي فاتت وفي وقت جوازي من أخوكي.

ردت بحرج:

-بصراحة أه.. بس لما عرفت إنو مش في دماغك تراجعت عن غيرتي منك وبقيت بقلدك في لبسك ومشيتك وطريقة كلامك.. لحد ما اكتشفت إن دا حب.. أنا حقيقي حبيتك من قلبي يا عبير..

قمتُ من جوارها لمّا لم أعرف كيف أجاري سيلان مشاعرها المتدفق..
-طب يلا قومي علشان منتأخرش أنا خلصت لبس..
وبالفعل خرجنا من المشفى جمبًا لجمب، تشدّ أزري..

*****

"تقول الأسطورة، حين نزل آدم وحواء واحتلّا صفحةَ الأرض البيضاء كانت الأرض عذراءً حُلوة وقذف القدر تلكَ النُطَف في رحمها، نطفتان منهما قتل أحداهما الأخرى.. سالت الدماء فأغرقت البياضَ حمارًا فاشتعلت نيرانُ الحزن فحوّلت اللون الأحمر أسودًا قاتمًا وتحوّلت تلك العذراء الحلوة لعجوزٍ مُرّة وأصبح اسمها "الدنيا"..

ظلّت على حالها تعذّب الناس بسوادها وقتامة روحها انتقامًا، ومرّ الزمانُ بسطوته عليها وقذف القدر من جديدٍ في رحمها نُطفتان وكعادتها ضيقت الخناقَ عليهما.. فأخبرها الزمان أن أحدهما رسول، تعجّبت لكنها أكملت، لكن بالرغم من ذلك.. بالرغم من الشر والقتل رتشةُ نورٍ أضاءت صفحة الدنيا السوداء حينما قالت نطفةٌ لربها وهي تشير لمثيلتها: "اشدد به أزري وأشرِكهُ في أمري" ولم ترد النطفة الرسول إكمال مهام دعوتها إلا بوجود مثيلتها معها.. حينما حدث ذلك تحوّلت الدنيا لسيدةٍ ثلاثينيةٍ ناضجةٍ وأصبح اسمها "الحياة"! حياةٌ فيها من الظلام والنور قدرٌ متوازنٌ يغلبُ الظلام فيه، إن ضحكت

لأحد تحوّلت حياته نعيمًا وإن غضبت أرسلت جنود الظلامِ لاحتلال روحه!"

قرأت تلك الأسطورة لكني لم أفهم معناها إلا مؤخرًا، غريبةٌ هي الدنيا بحقّ، برغم مرّها إلا أن في صفحتها السوداء رتوشُ نور، يتسللُ منها الحُلو قطرةً بقطرة محافظًا على نُدرته، بالرغم من قتل قابيل لهابيل وما في قصتهما من وحشيّة ودموية لا أدري كيف باتت أختيهما وواحدةٌ تعلم أن قابيل وهابيل يشتهيانها وكيف كانت ليلة التي أيقنت أنها غير مرغوبة.. لن ألوم الأخيرة إن حقدت على أختها وتمنّت زوال جمالها الذي جعل حبيبها يشتهيه، كانت هذه الجريمة هي أساسُ دناسة الدنيا العذراء باللون الأسود، هذه الجريمة هي بداية فضّ عذرية الحياة.. لكن وبالرغم من ذلك.. بالرغم من الشر والقتل رتشةُ نورٍ أضاءت صفحة الحياة السوداء حينما قال موسى لربّه "هارون أخي اشدد به أزري" ولم يرد إكمال مهام دعوته إلا بوجود هارون معه، فاختلت موازين الدنيا ما بين وجود الشيء وتضاده، وجود الشر الغالب والخير المُنحصر.. حتى من جوف الشر يولد خيّرٌ يرفض ظلام الشر!

*****

سريري الدافئ برغم كآبته، شرفتي المشمسة برغم صغرها، حوائط غرفتي الساكنة برغم أنها شهدت على الكثير، نعيمٌ حرمتُ منه

وليتني قدّرت قيمته قبل زواله، كوبٌ من القهوة يزّين يدي الهزيلة بشدّة بينما تُمسك الأخرى بروايةٍ جديدة لأتذوّق نكهةً جديدةً من الأدب، العصافيرُ تُزقزق من شرفتي وخلف شُباكي، فيروز بصوتها الهادئ تقول "أهو دا اللي صار وآدي اللي كان، ملكش حق.. ملكش حق تلوم" وكأنها تواسيني فيما حدث لي، توقفتُ عن القراءة وأنا أدندن معها وأهزّ رأسي في تناغم شديد لا يعكّرهُ سوى تلك الجبيرة على عيني، لا أدري ما الفائدة منها على جرحٍ كبير، تحسستُها بيديّ فانقبضَ قلبي.. لم أعلم ما سببُ ذلك لكني قُبِضتُ وبشدة، قطع حالتي الهائمة صياحهُ بالخارج، يصيحُ بشدةٍ وكأنها القيامةُ على الأبواب، شعرتُ بحزنٍ دفين، ألم يشتق لي حقًا؟! ألن يتوبَ عن نجاسته؟ أليسَ مكتوبًا لي أن أفتخر بكونهِ يخصّني وأنه لن يعود لخصالهِ التي عكّرت صفو علاقتنا وهدمت أبراج الثقة بيننا وانهارَ سقفُ الأمان على رأسي وحدي حينما ضربهُ بقبضة تحرّشه!! حتى بيتُ أبي يلفُظني.. لفظتني الشوارع والحكايات والأمكنة، لفظتني العائلات، لم تقدر الجدران على احتوائي أنا الضعيفة ذات الجناح المكسور الذي جبرتهُ بجناحها الآخر طائرةً برغم هولِ الألم، فُتح باب غرفتي على مصرعيه فأحدثَ عاصفةً من هواءٍ باردٍ اقشعرّ للشعورِ به جسدي، لا أدري أكان مصدرُ البرد قسوة أبي أم الجو! نظرَ لي والشرر يتطاير من عينيهِ بينما أنفاسُ النيران تتسلل من بين شفتيه التي قبلتني بشهوةٍ مراتٍ عدةٍ

بدلًا من تقبيلي بعاطفةِ أبٍ حنونٍ يُلاطِفُ ابنته!

-إيه اللي رماكي علينا لا سمح الله! مش خير ولا إيه؟!!

ضحكتُ بوهنٍ مُستهزِء:

-مفيش إزيك يا بنتي مالك إيه اللي عمل فيكي كدا؟! الزمن مش هيغيّرك ولو لمرة وتحس إني بنتك!

-بقولك إيه هو إنتي جاية تصحي ضميري!! لو دا مُرادك فأحب أقولك إنه ميّت من زمان..

ابتسمتُ له..

-أه عارفة.. ديل الكلب عمره ما هيتعدل، بس كان عندي أمل تتعدل والله..

همّ رافعًا يدهُ ليضربني، كرد فعلٍ ليده المرفوعة أزحتُ راسي من أمامه فسقطت طاقيتي ليظهر رأسي العاري.. نظرَ لي وأنا أسارع لالتقاطها من الارض وارتديها على عجل، لكنه قهقه قائلًا:

-دا إنتي مفيش فيكي حتة سليمة أضربها.. بقيتي عاملة زي خرج السجون..

شعرتُ بالقهر، بغصّةٍ في حلقي.. أن أظهر بمنتهى الضعف قُبالة شخصٍ يرضى لي الذل والهوان ولم ينتفض غضبًا لابنته.. ابتلعتُ حسرتي وأنا أقول بأنفاسٍ متهدّجة:

-أه ما أنا خرجت من بيت فيه دكر قذر روحت لبيت فيه دكر أقذر

منه، من نيلة لأنيل..

-بقولك إيه.. أنا ما صدقت ارتحت منك، لمي هدومك وعلى بيت جوزك.. المرة ملهاش إلا بيت جوزها أه، أنا معنديش بنات تتطلق..

برغم معرفتي لنذالته، إلا أن طريقته الفجّة آلمتني، شعرتُ حينها أني مصابةٌ بالبردِ الناهش لعلاقاتي وجسدي الذي لا يريد أحدٌ احتواءه، لا بيتٌ ولا أهلٌ ولا زوجٌ ولا وطن، لقد فقدتُ وطني حينما انفصلت عنه أمي.. لقد بقيتُ بلا أهلٍ حين انفصلت عنه أمي، لقد أصيبَ قلبي بالعطبِ حين انفصلت عنه أمي!

وأنا التي طلبتُ من منار إيصالي لمنزل والدي لعلّي أنعمُ ببعضِ الراحة، لو قدرًا ضئيلًا منها حتى أرتّب أفكاري ولأنظر ماذا سأفعل في حياتي التي دُمّرت، لم أتخيّل أن أُطرَدَ يومًا بهذا الشكل أنا الذي كنتُ أهرب من هذا البيت هربَ هو منّي الآن.. تركني وذهبَ وهو يزعِقُ بزوجته لتُحضّر له حجرين شيشة على الفور وهو يقول لها بعزم صوته:

-لما عبير تمشي إبقي إغرفيلنا علشان ناكل حاكم أنا نفسي مسدودة دلوقتي.

كم كان الموقفُ قاسيًا، أسأذهب بنفسي لما تسبب في تشويهي جسديًا ونفسيًا بقدماي ليعلم أن لا أهلَ لي؟ سيستضعِفني من الآن فصاعدًا، لن أسوى بعينيهِ ثمن ذرّةَ ملح!

نظرتُ للسماء بقلّة حيلةٍ وبضعفِ العالم أجمع، كنتُ أخاطبه.. لو كان

اختبارًا فأنا قد انتهت طاقتي ولم يعد بِجُهدي ذرةٌ أبذلها، ولو كان عقابًا على شيءٍ اقترفته فأين رحمته بعد كل ما عانيته!

لم آخذ معي شيئًا.. أنا فقط سحبتُ حقيبةً بلاستيكية سوداء كبيرة نسبيًا ووضعتُ بها باقي كتبي التي تركتها هنا وغادرتُ غرفتي وسط نظراتها المستغربة على حالي فأنا لم أرتدي ملابس الخروج، أنا فقط رحلتُ ببيجامتي حاملةً كيس كتبي وغادرتُ البيتَ بمن فيهِ بلا رجعة، شارعٌ طويل مشيتهُ لأخرج من عزيتنا الصغيرة للطريق العام، ساعاتُ العصاري الجميع في قيلولتهِ أو في منزله يرتاحُ بعد ساعاتِ عمل شاقة، الطريق خالٍ تقريبًا وحتى وسائل المواصلات شحيحة للحد الذي جعلني لا أقوى الوقوف منتظرةً فجلستُ على الرصيفِ واضعةً كنزي الصغير بجواري، أطالعُ الموجودات من خولي بعدميةٍ شديدة، ماذا لو انهارت السماء فوق رأسي الآن وتفتت ذراتي ولم يعد لي وجود؟ أستتفتت أحزاني كتفتُتِي؟ أو ماذا لو دهستني سيارةٌ الآن غفلت أعيُن سائقها لأموتَ أنا فداءً لهذا السائق ليعود لأولاده قائلًا لقد كُتِبَ لي عمرٌ جديد، لا أريدُ كياني هذا.. إن كانت مشكلتي هو أني موجودة فلأتحول لرمالٍ تدهسها الأرجُل أو لأعودَ لأصلي، التراب.. كالذي تراكم فوقي طول جلوسي على الرصيف، لم تخلو جلستي من تحرشات المارة اللفظية، أنا كارهةٌ لنفسي بالفعل فماذا سيضيف لي تحرشهم من كره! المتحرش يجب أن يكون عقابه الشنق حيًا وسط

الناس في ميدانٍ عام، ليتعلّم الجميع أن المرأة كيانٌ لا يمسّ لا بالقول ولا بالفعل، ليخاف جموع الذكور.. فنحنُ شعبٌ يحترم السوط ويقدّس الضرب لذلك سيتعلّم الجميع أن التحرش بفتاةٍ أو امرأةٍ أو عجوزٍ هو فعلٌ محرّم من جازف وفعله نهايته ستكون مأساويةً للحد الذي سيندثر معه هذا الفعل المُشين.. لم أشعر بحلول الليل إلا حينما اقتربت مني سيارةٌ فتح سائقها الزجاج قائلًا:

–ما تيجي تروح معايا يا جميل أنا بيتي قريب..

وجدتُ نفسي لأول مرةٍ في حياتي أبصُق على أحد، ثارت أعصابي ومعها صوتي..

–يا عديم الرباية أنا مش للشقط، وربنا لو ما مشيت من هنا لهخلي فضايحك بجلاجل في العزبة..

كلماتي الحانقة كانت بمثابة الطاقة الدافعة لفراره بسيارته، هكذا هم المتحرشون، جبانون يحاولون فرض رجولتهم الوهمية على الضعفاء حتى يشعروا بكيانهم الرخو المغلّف بالحقارة، لكني شعرت بخوفٍ شديد فآثرت الذهاب لمنزل حسن لأتقي شر سطوة الليل وغدره، سرتُ على أقدامي لما يزيد عن الساعتين لفقري للمال وللرصيد، فلا مال لدي للركوبِ ولا رصيد لأتصل به ليأتي ويأخذني، قاومتُ انهيار جسدي حتى لا أتعرض للخطف أو الاغتصاب من أحدهم، لا طاقة للسيرِ ولا وضوح رؤية، شارفتُ على الوصول لناصية المنزل

لأجد الجيران في الأرجاء، من المؤكد أنهم شاهدوني عارية وهم الآن يتابعون رجوعي لمن أذوني وتعدّوا على حرمة جسدي، الجميع يطالعني باستغرابٍ شديد، نظراتهم لم تعد تشعرني بالخوف، لقد شاهدوني وأنا بأضعف حالاتي ولم يعد عليّ إظهار أني بخير أو الادعاء بكوني قوية، أنا في قمة هشاشتي ولحسن الحظ أن ذلك لم يعد يُخجلني!

دلفتُ للبيت، باب حماتي يُفتح بشدةٍ حتى خِلتُ أنها ستقتلعه من مكانه، منار تقفُ أمامها تمنعنها من الاقتراب مني وأنا أكملُ الصعود لشقتي بهدوءٍ غير مبالٍ لما حولي، فليحترق العالم ولأحترق أنا في قعر جهنم.. أنا لم أعد أبالي لأي شيء.. أخرجتُ مفتاح الشقة من محفظتي التي تحتوي على هاتفي، الظلام دامسٌ أمام الشقة فأخرجت هاتفي وفتحتُ الكشاف لأنير لانزلاق المفتاح، دخلتُ للداخل بهدوءٍ اخترقتهُ تأوهاتِ أنثى ضعيفةً تأتي من الداخل، حسن يتلفظ بألفاظٍ بذيئة للغاية وصوتُ ارتطامُ اللحمِ باللحمِ يسمعه فاقدُ السمع، مشيتُ بهدوءٍ بعدما تركتُ كتبي بجوار الباب الذي أقفلتهُ بهدوءٍ شديد وأقفلتُ كشّاف هاتفي واتّجهتُ ناحية غرفة النوم، فتحتُ الباب ودقاتُ قلبي تقرع صدري من شدتها، لأفاجئ بما توقعت، على سريري وفي بيتي يخونني مع ساقطةٍ مثله، نظر لي الاثنان بذعرٍ أوقف تناغمهما، لم أتحرّك من مكاني وأنا أتابعه يقفُ سريعًا يرتدي ملابسه وهي تحاول زحزحة ملاءة سريري لتواري جسدها، اقترب مني ليُخرجني

من الغرفة بينما نفضتُ يده التي كادت تلمسني قائلةً لها:

-مكسوفة إني أشوف جسمك ومكنتيش مكسوفة وانتي في حضنه!!

دفعني بقوةٍ لم أستطع صدّها للخارج بينما قامت هي مسرعة وارتدت ملابسها وهربت من أمامي.. لم أفعل اي شيء في الدقائق الفائتة غير النظر لهذا الخائف من أن أفتح فمي محدثةً له فضيحة في الحيّ، هو على علمٍ تام بمقدرتي وحقي في فعل ذلك، لكني تركته ببساطةٍ واتجهتُ ناحيةً غرفة الأطفال، دخلتها وأقفلتُ عليّ بابها وتركتُ جسدي يسقط خلف بابها المغلق لأفترش بجسدي الضئيل مساحة ضئيلةً مثلي لأبكي بها، نكثت عهدي وبكيتُ حتى مطلع النهار، بكيتُ حكايتي كلها بكل خذلانها وآلامها، بكيتُ كل ما يربطني بكوني أنا.. حتى غفت عيني الوحيدة التي ترى الشمس!

مرّ يومٌ كامل أنام فيه مكاني وراء الباب بلا غطاءٍ ولا طعام ولا شراب، زهدتُ الحياة، زهدتُ كل شيء.. تمنيتُ لو يتوقف قلبي الآن فأصعد للسماء حزينةً فينزل الله عقابه الشديد بمن تسبب في حالتي هذه لكنه لسببٍ ما لا يفعل، قنطتُ من ضعفي وقلة حيلتي، أغمضتُ عيناي من جديدٍ لأغفو ليوم آخر علّي أذهب نحو الربيع أخيرًا.. لكنّ فرقي الوحيد أن لا "ثيو" في حياتي لأتشارك معه رسالة موتي المبكر، فلا حاجة لي بمسماه الذي يتداوله الجميع، هو موتٌ مبكر وليس اكتئابًا..

*****

خبطَةٌ عظيمة أصابت ظهري الذي يُلامس باب الغرفة، شعرتُ بِعظامي تُطقطِقُ من شدتها، فتحتُ عيني الحرّة وأنا أتألم بشدةٍ ناهِضةً من رقدتي التي لم تكن الأخيرة، الليل مخيّمٌ بعباءته السوداء على تفاصيل الغرفة غامرًا إياها في طيّ السكون المبالغ فيه، ابتعدتُ عن الباب وأنا ممسكةٌ بظهري ففُتح من فورهِ وأنا على حالتي من التألم الشديد وعدم الاتزان لاستيقاظي السريع هذا، فتح نور الغرفة فأغمضتُ عيني لشدة الضوء بعد عتمتي التي دامت لأيام، آخر وجه تمنيت رؤيته هو وجه حسن، الخائن حسن، وقف أمامي يطالع حالي..

-مستغربتش رجوعك بعد كل اللي حصل فيكي، ما هو لازم يرجّعك ما أنا دافع تمنك..

نظرتُ له بعدم فهمٍ لما يقول، أو ربما أردتُ أن أتصنّع عدم الفهم لأهدأ من روعِ نفسي لتقبّل تلك الصعقة، سأتحوّل لرفاتٍ محترقٍ بعدها.. خرج سؤالي القَلِق كقلقِ نبضاتي:

-دافع تمني لمين أنا مش فاهمة؟!

ضحك بجانب فمه وعينيهِ تعلوهما نظرة شامتة لم أرى في حياتي مثلها، سر سعادته الآن غريبٌ حقًا.. لكنه قاطع تأملي لحالته مردفًا:

-أبوكي باعك ليا لما معرفش يسدّ تمن اللي خده، فخليكي حلوة كدا يا قطة وخليني أستمتع بيكي وبتمنك.. ما أنا مش هطلع من المولد بلا حمص.

"تمن اللي خده" توقف عقلي عند تلك الجملة، أي ثمنٍ يقصد وأي شيء قد يشتريه منه أبي؟ أبي جبانٌ يُضرَب فقط لا يضرب.. لا طاقة شجاعةٍ لديه لحمل سلاح، ولم يشتري منه سيارة لكونه مالك "أچانس" سيارات، ماذا اشترى منه أبي وعجز عن سدادهِ ليأخذني كتعويض؟! ألأنه مبلغٌ كبير أم لبُخسه!! ألم ينتهي زمن الجواري أم ان معلوماتي مغلوطة؟!

-تمن إيه اللي معرفش يدفعه ليك؟

-إبقي روحي إسأليه.. ولا أه نسيت، أكيد طردك من هناك علشان مروحش أحبسه بالوصولات اللي عليه، أه ما علشان أضمن إنك تفضلي خليت نسخة من الوصولات معايا.. الوصولات اللي على بياض اللي هو ماضيها، وتمن جوازك واخد بيه بضاعة ناشفة كمان، بس دول كانوا كادوه مني ليه على البطل اللي جوزها لي..

قرأتُ ذات مرةٍ أن البرق إن ضربَ أحدهم ماتَ فورًا متأثرًا من قوته، لا فرار من الموتِ إن أصابك البرق.. ستموت متفحمًا قبل أن تشعر بحدوثِ شيءٍ لك! يقولون أنها المِيتة الأشد ألمًا في العالم.. أصابني ألمٌ يعادل ألم تلك المِيتة وأكثر، اقسم بربّ البرق أنهُ أصاب قلبي الآن.. ماذا كنتُ أتوقع منهما أصلًا لأتألم من خيبة ظني بهما؟ لم يكونا ملاكينِ قط ولكني لم أكن أتوقع أن شيطنتهما وصلت لهذا الحد، خيبة الأمل تقتل المرء عن الألم، أن تكون توقعاتك في شخصٍ ما بمنزلةٍ

فيُفاجئك بأنك كنت على خطأ وأنه في منزلةٍ أدنى.. في التراب!
سؤالٌ واحد ألحّ عليّ لساني لنُطقه:
-أمال كنت بتلف ورايا وبترسم عليا إنك بتحبني ليه؟!!
نظراتُ الاشتهاءِ بعينيهِ في هذه اللحظة أجابتني، أجابتني بقسوةٍ قبل أن ينطق هو..
-اللّه مش لازم أعاين البضاعة اللي هبدّلها ببضاعتي؟!
بصراحة انا مصدقتش أبوكي لما قالي إنو عنده بنت حلوة زي ما الكتاب بيقول، فكنت عاوز أتأكد بنفسي.. وفعلًا طلعتي أحلى مني شخصيًا..
اقتربَ مني فانكمش على نفسهِ جسدي بتلقائية..
-بس دا ميمنعش إنك عجبتيني وإني اتعلقت بيكي.. فسيبيلي نفسك يا حلوة بدل ما أروح لغيرك وكل يوم تيجي تلميني من على واحدة شكل، أنا راجل بتاع مزاج، فمتعكريش مزاجي علشان معكرش عليكي عيشتك..
كلمة واحدة فقط هي التي خرجت من بين شفتاي، كلمة تمنيتُ لو أنه حققها لي..
-طلقني.
احمرت عيناهُ وتعالت أنفاسه تلاها صوته..
-نعم ياختي!! أطلق مين إنتي بتحلمي..

اقترب أكثر وهمّ ليمسكني من شعري الذي ذهب مع الريح لأرضٍ لا تطالُها الشمس، فهوت يدهُ على طاقيّتي.. مُقرّبًا جسدي منهُ بشدةٍ قائلًا:

-إنتي مِلكي وهتفضلي ملكي لحد ما أزهق منك وارميكي إنتي وورقتك في الشارع..

من شدة قبضهِ على الطاقية من الخلفِ دنت منها مقدمة رأسي الحليقة.. انفرجت عيناهُ بشدة، أزاحها كلّها ليظهر أمامه رأسي الذي بدأ الشعر الأخضر القصير جدًا بالنموّ في حقلهِ الأصلع، ابتسمَ قائلًا بخبث:

-عارفة يا بت يا عبير، إنتي بقيتي كدا مثيرة أوي.. عجبتني الحلقة دي وطالما عجبتني فأنا لازم أجرّب..

لم ينتظر ردّي، سحبني ورائهُ بقوةٍ وأدخلني غرفة نومه..

-خمس دقايق بالظبط.. لو رجعت ولقيتك مش جاهزة هتندمي ندم عمرك.

اقفل الباب وتركني وحدي أصارع كل شيء، ليت الأمر بهذه السهولة، أن أضغط على مكبسٍ فتنتهي حياتي أو أنسى كل ما حدث، ليت بمقدوري النسيان وتخطّي كل هذا الهمّ الزائد عن الحدّ لكنها الدنيا، جالبة الهمّ والنكد..

لم أتحرك من مكاني، ظللتُ واقفةً مكاني بلا حراكٍ جرّاء تيَبُّسي،

كشجرةٍ ساكنةٍ تجري فيها المياه والروح داخليًا أما خارجها فتُضاهي بثباتها اتّزان الكون، لم يُهددني بالشكل الكافي وحتى لو فعل.. ماذا لديّ لأخاف عليه أو من خسارته! أقفُ أمامهُ عوراء بعينٍ واحدة والأخرى تواريها ضمادةٌ ومعها نصف وجهي، هزيلةٌ كالموتِ حليقةُ الرأس ويقول "مثيرة" إنه مختلّ وأنا لم يعد لي مزاجٌ للاحتفاظ بأي مختلٍ بحياتي، يكفي لهذا الحد.. يكفي!

دلف الغرفة بعد انتهاء مهمتهِ وفي يده سوط، تجمّدت الدماء بعروقي حين رأيته.. ماذا سيفعل بهذا ولأي غرضٍ أتى بهِ! لم أتساءل كثيرًا فلد أجابَ وهو يفرده:

-أبويا زمان كان عنده إحصنة، تعرفي كان بيدربها إزاي؟!

رفع يدهُ نسبيًا ممسكًا به وهوى بهِ على جسدي، ضَوَت عيني من فرطِ الألم.. لوهلةٍ ظننتُ أني داخل كابوسٍ ما وأن معذّبي هذا ما هو إلا شيطانٌ تشكّل على شكل أكثر شخص أكرهه في العالم لإرهابي فأستيقظُ فزعةً أستعيذ بالله من شيطانه المتصيد لنقاط الضعف والكره هذا! لكنّ الألم الذي شعرتُ به يهتِكُ عافيةَ ظهري جعلني أوقن أنه ضربي بسوطٍ للتوّ، كنتُ مشدوهةً أكثر من كوني متألمةً حد خطف أنفاسي، فتحتُ فمي أحاول إدخال الهواء لرئتي التي توقفت عن العمل، شهقتُ وأنا أبدأ في البكاء، حاولتُ كتم تأوهاتي فلم أستطع..

هويتُ أرضًا أبكي بشدةٍ، لا أذكر أني بكيتُ هكذا طوال حياتي.. ليلة غادرتني أمي لم أبكي بحرقةٍ هكذا، اقترب مني رافعًا جسدي الهاوي من ذراعي لأقف قبالته، تحدثَ بهمس:

-مش أنا قولتلك إجهزي؟ مجهزتيش.. أنا هخليكي تجهزي بطريقتي.

دفعني ناحية المرآة لأرتطم بها فأطحتُ ما كان عليها من أشياء، زجاجات العطر هشّمت جسد المرآة جزئيًا، لو نظرت لأقسامها المهشّمة سترى الكثير منك بلا نهاية، أمرٌ واحد تلفظَ به:

-حطي روج..

نظرتُ لانعكاساته في المرآةِ بخوف، بأيدٍ مرتعشة بحثتُ بين الحطام عن أقلام الحمرة خاصتي، سحبتُ ما وصلت إليه يدي، لم تتوقف يدي عن الارتعاش ولا عينايَ عن البكاء وأنا أفتحهُ وأضع منه على شفتي، هوى السوطُ على كتفي ومقدمة صدري من جديدٍ وهو يقول:

تقّليه..

غشت الدموع عيني ومع غياب الأخرى لم أكن أرى بشكلٍ واضح مع اهتزاز يدي حادَ خطّه فلم يُرسم بشكل صحيح، أصبحتُ أشبه الجوكر على أقل تقدير، أبكي بلا توقفٍ من فرط الألم، تتقيأ عيناي ما بها من مخزون دموعٍ حبسته لأيام، بدأ جسدي بالانتفاض وبدأ عقلي بالهذيان، ظننتهُ سيتوقف عن رعبهِ هذا إشفاقًا على حالي، ستنتهي هذه المسرحية الآن بنهايةٍ مأساويةٍ وسيُسدل ستار علاقتنا

معلنًا انتهائها لكنه لم يفعل بل أكمل في طلبِ شيءٍ لم أتوقع أن يطلبه، لم يكن طلبًا فيه رفضٌ وقبول، هو فقط يُقدّم ما سيفعله بلا انتظارٍ لرأيي ولا خوفًا من حُرمانية الأمر..

انتهت الليلة -الطويلة جدًا- تعلو وجهي نظرةً يابسة، كما أصابت الجوكر ندبةٌ حولتهُ لرجلٍ قاسٍ.. جامدٌ حزين، وجهي توقّف على تلك الحالة اليابسة، لا يعطي أي رد فعلٍ أو أي بادرةٍ توحي أني بخير، في داخلي يقينٌ أن عرش الرحمن اهتزّ اليوم لكن ليس بسببي، أنا للمرة الثانية مُغتصبةٌ مكروهةٌ على فعل ذلك تحت ستار -الحقوق الزوجية- أنا لن أُحاسب على رغباته القذرة!

*****

من موقعي هذا وبعد تجربةٍ لأن يدعسَ أحدهم كبريائك ويرغمك على ابتلاع الألم المرّ غيرَ مبالٍ لشعورك الذي يستغيثُ طالبًا الرحمة أعطيتُ "آدم" بطل رواية الجزار كل الحق في قتله لكل من اعتدى عليه، أصابني استنكارٌ حين قرأتُ تلك الرواية، تشنّجت أعصابي.. أو ربما كانت ردود أفعالي نابعةٌ من معرفتي لدياثة زوجي.. لكن كيفَ يُقدم بشريٌ على قتل أحدهم، ماذا فعل به أحدهم ليصل لهذه الحالة القاسية واللاشعورية؟ أن تترك محظورات دينك وراء ظهرك، أن تترك خوفك، قلقك، حياتك ومستقبلك وراءك وتبدأ في التنفيذ لإنهاء نَفَس أحدهم وأنت على يقينٍ أن حياتك ستنتهي مقابل انتهاء

نَفَسِهِ!! السجن مكانٌ قاسٍ والإعدام قاسٍ لكن لذة شعورك بالانتقام تساوي قيمة حياتك الفائتة والقادمة.. فتفقد بعدها رغبتك في الحياة، انتهت أو لم تنتهِ لن يهمّك..

لم أكن أريد الحياةَ بعد تلك الليلة التي خسرتُ فيها حُرمة جسدي للأبد، منع حسن أخته منار من الدخول لي برغم صراخها وصياحها بهِ كنتُ أسمعه يضربها في كل مرةٍ ويطردها فتظل تقرع الباب بلا مُجيب لكن أمي كانت معي، تجلّد جسدي فلم أعد أنهضُ من فراشي، مُذ تركني هناك وانصرفَ عني وأنا عارية.. في حالة تيهٍ ما بين الواقع والخيال، لا أدري متى استيقظتُ ومتى غططتُ في النوم وما اليوم وما هي الساعة الآن، تُعاد أمام عيني كل مآسي حياتي، لم أستحقّ كل هذا، الحياة أصبحت ضيقةً على جسدي لحدٍ لا يُطاق، أشعر باختناقٍ شديد لا يُنهيهِ تنفسٌ ولا أي شيء.. تستمر في تضييق الخناق، أكثر.. أكثر.. فأكثر، وجهي أصبح أزرقَ كزُرقة المحيط الواسع، جسدي باردٌ كبرودة القطب البعيد -جدًا- المتطرّف من الكوكب، وحيدةٌ كدبّة حديثة الولادة فقدت أمها ولا خبرةً لديها لتواجه كل أهوال العالم وحدها، فاقدةً للمعنى والوِجهة، وبدلًا من أن تدخل في بياتٍ شتوي محدود المدة أصبحت حياتها كلها بياتٌ تخشى فيه أن تقابل أحدًا أو أن تسوقها الأقدار لورطةٍ ما لن تستطيع الهروب بسلامٍ منها فقررت الهرب للشيء الوحيد الآمن في حياتها وهو النوم.. النومُ حيثُ لا ألم..

لا مشاكل.. لا ضغوطاتٍ ولا شيء، فقط ميتةً صُغرى من سكون جسدي وأنشطتي الحيوية الذي ستتحوّل لكُبرى أخيرًا، إنسانٌ بائس سيموتُ يومًا بما يخشى في ليلةٍ باردةٍ وحيدًا بلا رِفقةٍ، ستنظُرُ له الملائكةُ بشفقةٍ وهم يستقبلون روحهُ المعذّبة لمثواها الأخير، روحٌ عذبتها أنانية البشر وتصرفاتهم الشاذة، سيقفُ أثناء استقبالي ملاكٌ يقول لا ألمَ لروحك بعد الآن، سلامٌ عليكِ يا معذّبةَ الروح سلامًا تنجلي من بعدهِ همومك وتشرقُ فيه شمسَ راحتكِ وتنقطعُ معه حبالُ وصلك بمخلوق النار المنفيّ للأرض.. سيد العذاب.. "الألم"..

ستكون مراسمُ استقبالُ روحي عظيمةً كَعِظمِ ما عانيت، أثقُ في ذلك، لكنّي لن أذهب للسماء بضمادة تواري ما فعلته وحشية البشر بي، سأذهب للسماء بجروحي عارية كعُري جسدي، لن أخشى نظرة سكان السماوات لجروحي الغائرة فهم يعلمون علم اليقين أن جروح روحي أعمق وأكثرُ إيلامًا، قمتُ من سريري الذي شهد على كل شيء، بتباطؤٍ لشعوري بالدوار الشديد، لم أتحمل الوقوف لثانيةٍ حتى فهبطتُ على طرف السرير من جديد تجاورني يداي التي تخذلاني لمساعدة جسدي على النهوض من جديد، تماسك يا جسدي تبقى القليل وسيحمل الملائكة ثُقلك الهيّن صاعدين للسماء بعد خطف ملاك الموت لروحك.. أو بعد تقديم روحي له تحديدًا فأنا سأسبقُ ميعادي المكتوب بدفاتر القدر، وقفتُ أخيرًا.. تُساندني رغبة إنهاء كل شيء

على السير ناحية المرآة المهشّمة لأفك ضمادتي تلك، ضمادةٌ حرمت عيني نورها، لا أدري لماذا وضعها محمود من الأصل ومن المفترض أن الجرح لا يُجاور عيني على حد شعوري بنفسي وقتها حينما تحسستُ وجهي النازف من بين شظايا الزجاج، جلستُ على الكرسي المقابل لها، نظرتُ لهيأتي العارية كيوم ولدتني امي بلا شعرٍ ولا ملابسَ وها أنا ذا أعيد محاكاة أحداث ولادتي لوقت الرحيل، جئتها عارية وسأرحلُ عنها عارية.. بلا ذنوبٍ ولا خطايا، مكان السوط تورّم، صفعاته على سائر جسدي أثرها الأحمر ظاهرٌ بشدّة، آثارُ أضافرهُ على رقبتي وظهري، هالتي السوداء بدأت بالزحف لمنتصف خدي الأيمن، عظامي بدأت في الظهور من أسفل جلدي الذي أصبح رقيقًا كبتلةِ وردةٍ إن لمستها تأكسدت وانهارت من فورها، تحسستُ ضمادتي الضخمة التي تلتهم نصف وجهي الأيسر برفقٍ فمازال الجرح يؤلمني، بدأتُ في إزالة اللاصق الطبي الأبيض شديد الالتصاق بشعر وجهي الذي بالكاد تراه العين، الأمر مؤلم حد جعل عيني الحرة تدمَع!

بضع دقائقٍ كانت كفيلةً لإنهاء الأمر بالإزالة البطيئة، ظهر القطن الأبيض والشاش المحيط بعيني والجرح الطولي من فوق حاجبي وحتى منتصف خدّي، أزحتهم في فضولٍ لأرى الجرح ومدى تأثيره على شكلي.. لكن ما جذب انتباهي ليس الجرح بشع المنظر، قطعًا لا، لاصقة العين المستديرة المبطنة من الداخل توازي تجويف عيني،

لماذا؟ أوضعها محمود حتى لا أقوم بفتح عيني أسفل القطن والشاش؟ أم لخوفه من أن تلتصق رموشي الطويلة باللاصق الطبي فيقتلعها فأُمسي بلا رموش! يبدو ذلك.. لكنّ فكرة تكفين عيني هذهِ أصابتني بالضيق فبدأتُ برفقٍ بإزاحة اللاصقة ليصل النور لعيني أخيرًا ولتتحرر من عتمتها التي طالت، أزحتها وبدأت عيني في الانفتاح شيئًا فشيئًا لكنّ النور لم يتسلل لها بعد.. نظرتُ لنفسي.. لانعكاساتي الكثيرة من فرط تهشم المرآة لأتفاجأ من عدم احتواء عيني لعينها! ظننتُ أني أهلوس، اقتربتُ من المرآة أكثر، كثرة انعكاساتي تُصيبني بالدوار فضربتُ بقبضتي المرآة لأستخرج منها شقفةً لأنظر بها، تناثرت من يدي الدماء لكن لم ألتفت له.. نظرتُ بتمعُنٍ لعيني، تجويف عيني فارغٌ لا عينَ به!! تسارعت أنفاسي بشدة، أين عيني؟!! بيدي النازفة حاولتُ فتح تجويف عيني الذي تلطّخ من دماء يدي فلم أجد عيني.. هالني منظرها الفارغ.. تجويف عيني كقبرٍ فارغ، موحِشٌ مُظلم، لا حياةَ فيه ولا نور!

قمتُ من مكاني كالمجنونة أطيحُ بالغرفة باحثةً عن هاتفي فلم أجدهُ، خرجت من الغرفة قاصدةً كيس كتبي الذي تركته بجوار الباب حينما وصلت فلم أجده بمكانه، بحثت في المكان برمته عن الكيس حتى وجدتهُ ملقىً على السفرة مفرّغ المحتوى والكتب متناثرة على سطح السفرة وكأن حسن كان يبحثُ بينها عن شيءٍ ما وهي محفظتي بالفعل،

المحفظة تقيأت كل ما في داخلها بجوارها بما فيهم هاتفي، انقضضتُ عليه لأجد أن حسن قد عبث بمحتواه حينما راجعتُ التطبيقات المنبثقة، لقد راجع محتوى الهاتف بكل ما فيه من تطبيقاتٍ وبيانات، أتمنى أن "اللاشيء" الذي وجده قد أراح شكّه، فتحتُ قائمة الاتصال وقمتُ بالاتصال بمحمود من فوري، لم يجب اتصالي اللحوح، عقلي يتركني.. أو بالأحرى تركني وأنا أقاوم ليظلّ هنا لأدرك ما يحدث معي، دخلتُ الغرفة من جديد وبيدي الهاتف، وضعته بجواري وجلستُ ضامةً ساقايَ لصدري وأنا أهتزُ للأمام والخلف متجاهلةً الدوار الذي يعصف بي، لن أقاوم توتري الآن.. لن أتصنّع المقاومة والجَلَد، قاطع اهتزازي رنين الهاتف بعد مرور ساعتين أو أكثر على ما يبدو، أو ربما ساعتينِ بعد آخر انتظارٍ انتظرته بعد مرور ساعتين!! أمسكتُ الهاتف بلهفةٍ لأنظر لهوية المتصل.. محمود، رؤية اسمه على الهاتف كانت كفيلة بتحريك لهفتي دفعةً واحدةً لثوتي وأنا أجيبه، خابت ظنونه حينما طلبتُ أن أسأله عن شيء ما بدلًا من اعترافي له بحبي كما تخيل للأسف..

-إيه اللي حصل لعيني!

تلجلجَ صوته بشدة، يبدو أني كشفتُ لعبته التي لعبها هو وعم محسن عليّ.. أغمضتُ عيني بأسىً شديد، الجميع.. الجميع يعبثُ بجسدي.. الجميعُ بلا استثناءٍ لأحدٍ مهما تعددت النوايا واختلفت، كلٌّ يريدُ

فرض سيطرته ورغبته على جسدي الذي يستقبلُ بلا توقفٍ لأن لا حدود له، سقطت حدود جسدي منذ زمن، استضعفوني
واستهانوا برد فعلي الذي لم يخرج للعلن يومًا، الساكت عن حقّهِ شيطانٌ ظلم نفسه، الصامت الخجول الجميع يستضعفونه ويبددون كبرياءه.. أليس من حقي معرفة ماذا حدث لجسدي كوني مريضةً تلقيت العلاج على يد طبيبٍ ما، يدرّسون لنا ما لا يطبقونه بأنفسهم، كل ذا رُتبةٍ مهما كانت يستضعفُ من أقل منه في سلسلةٍ لن تنتهي والحقيقة أن الجميع مستضعفون، فاز من أوقف ذلك التسلسل البغيض وأنا فعلت.. لن أسمح لأحدٍ بفرض سيطرته على شيءٍ يعود لي، سأوقف ذلك التسلسل البغيض، يكفي تحكمًا بي لهذا الحد..
طال صمتي على الهاتف وبادلَ هو طول صمتي بتوترهِ الذي يترامى من بين أنفاسهِ المضطربة، قاطعتُ صمتنا بهدوءٍ قلتُ مستفسرةً:
-علشان كدا إديتني الحقنة المهدئة، علشان تدخلني العمليات!
رد بهدوءٍ نادم:
-مكنش ينفع أقولك وإنتي في حالتك دي، إنتي مشوفتيش شكلك كان عامل إزاي، أرجوكي يا عبير تفهمي موقفي ومتزعليش مني..
-طبعًا أنا اللي مُطالبة مزعلش من كل الناس بالرغم من إنكم كلكم بتزعلوني!
تلقّى بداية عدم سماحي له وبدأ في المحايلة لاسترضائي لكنه لم

يدرك حجم ما مررتُ به.. لم يدرك أن جسدي ملكي وجل من بحياتي تلاعبوا بملكيته تلك..

-أرجوكي يا عبير اسمعيني، شوفي الموضوع من زاوية تانية..

ضحكتُ بشدةٍ وأنا أقول مستهزئةً:

-للأسف يا دكتور أنا عورة ومبعرفش أشوف كويس، دا جسمي ال بتتحكموا فيه دا جسمي، حقي!!

وأغلقتُ الخط، شعرتُ بغيظٍ عظيمٍ كان ردُّ فعله أن قذفتُ الهاتف في الحائط أمامي لتتناثر أشلاؤه ولتنتهي صفحةُ وجوده من حياتي، ضحكتُ بشدةٍ بعد دقائق من سكون جسدي.. استلقيتُ وبدأتُ في البكاء وأنا أدثّر جسدي بالغطاء، لأبكي للمرةِ الأخيرة قبل رحيلي، لأبكي كما لم أبكي من قبل!!

*****

ورقة، قلم، أصابع شمع ملون، ملعقة، شمعة، كبريت، حبلُ غسيل، جوابٌ فارغ، ذكرياتي وأنا.. نهايتي ستكون بين الأوراقِ كما أردت..

منار تدقّ بابي يوميًا وعدة مراتٍ في اليومِ باكيةً تطلُب طمأنتها على حالي، أحيّةٌ أنا أم فارقت الروح جسدي، لو اختلفت تفاصيل قصتي وكان زواجي هادئًا لكنتُ وهي صديقتين مقربتين الآن نتسامر كلّ عصرٍ عن مستجداتِ حياتنا والحياة، لكنّ قصتي فيها من البؤس ما لم يوجد في قصةٍ قط أو هكذا أظن، فكل ذا مشكلةٍ يرى أنها نهاية

العالم بالرغم من مجاورته لصاحب قصةٍ تقاتل فيها مع الألم قتالًا أرداهُ قتيلًا، لا أحد يشعر بما تشعر به، لن يشعر أحد بما تعانيه.. فكفّ عن انتظار الاهتمام والمواساةِ من أناسٍ يعانون في نفس موضعك باختلافِ القصص، لم أكن أقوى النهوض للرد على منار المنهارة على باب شقتي، حاولت عدة مرات بجسدها الصغير حجمًا وقوّةً أن تكسِرَ الباب ولم تُجدي محاولاتها الضعيفة جدًا من أن تكسره، كسنجابةٍ صغيرة كسر شجرة!

سخرية والدتها على حالها الحزين كانت تكسرني أكثرَ فأكثر، ماذا لو متّ بالفعل وجثتي تتحلل حاليًا وبعد كذا يومٍ ستظهر رائحتها العطنة لأنوفهم، أستظل حماتي على عهد قسوتها معي؟ ألن تشعر بالذنب من معاملتها القاسية والغير مبررة لي؟

تُدهشُني خِصال القُساةُ قلوبهم، كيف ينامون بلا ذنبٍ وقد أذنبوا أشد الذنب؟ الجميع يهرب خوفًا من أن تقسى قلوبهم وحماتي تَبِيتُ ليلها بلا أدنى شعورٍ بالذنب جرّاء ما فعلت بي، لقد كشفت ستر جسدي أمام الناس، لم تُراعي حرمة الله فيّ ولم تتوانى من إشهار ذنبها أمام البشر والخلق وتحت سماءٍ اللهُ فوقتها يراها ونيتها، لا أريد أن تُردّ لها تصرفاتها في ابنتها البريئة من شرورها، لا أريد تحقيقَ عدلي على حساب أنثى مثلي ستُكسر.. ستتهشّم بذنبٍ اقترفتهُ والدتها، أريد القصاص من حماتي شخصيًا هي وابنها فهذا العدل في

قصتي، العدل الذي لم أذق طعمهُ إلى الآن ويبدو أني سأرحلُ سريعًا قبل الشعور بهناءِ مظلوم برجوع حقّه.. أخيرًا!

وبحالتي العارية كما أنا ًتزحزحتُ من سريري قاصدةً جلب منضدة المطبخ المتحركة المخصصة للفطور السريع، ضحكتُ مُستهزئةً على تفاصيلٍ صغيرة تمنيتُ عيشها في زواجي الذي ظننته سيكون سعيدًا، تمنيتُ مشاركة فطوري الباكر مع زوجي قبل رحيله للعمل، أن نتشاركَ رفع الأطباقِ وغسلها ثم نصنعُ القهوة وعلى عبقها أبادلهُ قبلة الصباحِ قبل أن نغادر لعملنا ضاحكين منتشيينِ بفرحةٍ لن يعكرها أحد، أن أعود للبيتِ سريعًا قبل عودتهِ من عمله لأعد له الطعام بيديّ المُرهقة التي سيقبّلها فور رجوعه للبيتِ بحبٍ قبل أن أعانقهُ لأُذهِبَ عن عاتقهِ تعب اليوم بأكمله، أن نتشارك مشاهدة التلفاز على أريكةٍ واحدة، يومٌ نشاهد فيلمًا وآخر يتابع قرة القدم بينما أقرأ روايةً وقدماي تفترشُ ساقيهِ والغطاء يدثّر كلينا، تفاصيلٌ دافئة حتى لو لم يكن الحبّ مُحركها فالعشرة الطيبة تغلّفها ويدعمها اللين ويرعاها الرفق، هزأتُ من حالي بشدةٍ وما أوصلتني إليه أحلامي.. فتاةٌ عشرينية على وشك مغادرة الحياة سريعًا بعدما انهارت محطة الأبوة فوق رأسها وما صدّقت أنها مازالت على قيد الحياة هربت سريعًا لمحطة الزواج فدهسها قطارُ الزواج بلا أدنى ذرةٍ من الشفقة أو لوم الذات، لم تتلقاني أذرع السعادة يومًا، لطالما نبذتني وسخرت من ضعفي..

بحثتُ بين حاجيات المطبخ على حبل غسيلٍ، ملعقة، شمعة، كبريت وسحبتُ المنضدة واتجهتُ لغرفتي للتجهيز لنهايتي، ستكون نهايتي مأساويةً لتتناسب مع بؤس قصتي، الربيع سيأتي لقصتي يا ثيو حين أُقدم على إنهائها بيدي، لماذا لا أشعر بالبرد بالرغم من كوننا في طوبة؟! أفقدتُ القدرة على الشعور أم تبلّدت مشاعري من فرط وهول ما شعرتُ به فشيءٌ كالبرد لن يؤثّر بها بعد الآن؟

تركتُ الادّعاء، على سجيتي وفقط سأذهب لنهايتي، بحثتُ في أغراضِ حسن عن علبة سجائر حتى اهتديتُ لعب سجائره فأخذتُ من بينهنّ واحدةً بتلهّف وذهبتُ للجلوس على الكرسي أمام المنضدة التي تحوي الأشياء على وجهها البارد، سحبتُ الكبريت وفضّيتُ غلاف علبة السجائر لأسحب من جنودها جنديًا أعزل، وضعتها بين شفتيّ بهدوءٍ لأتمكن من التحكم بها، ثم حررت عود ثقاب وأشعلته لأشعلها، أولُ نفسٍ منها كان بمثابة أني سمحتُ لهواء الكون الفسيح من المرور من داخلي، حررتُ خذا النفس الذي خرج بدخان كثير.. سعلتُ كثيرًا.. احمرّ وجهي وأدمعت عيني كثيرًا، لكني انفجرتُ في نوبةٍ من الضحك، أُصبتُ بالجنون.. لكني لم أتخيّل أن يكون شعور المجانين رائعًا لهذا الحد، كررتُ تجربتي في استنشاق أول لفافة تبغ في حياتي.. حرّةً من قيود نفسي والمجتمع الذي يُحلل للذكر شرب التبغ وتدمير رأته ويُحرّمه على الأنثى تحريمًا قاطعًا تُلقب من تقع فيه بأنها فاجرة

بائعة هوى، ازدواجية مجتمعنا مثيرة للغثيان بحق، فبأيِ حقٍ يحللون لأنفسهم شيئًا ويحرموننا من ممارسته لأننا إناث!

سحبتُ ورقةً فارغة، استصغرتها لاحتواءِ قصتي وما أريدُ البوح به أخيرًا بعدما اعتلّ صدري من حبسه، قمتُ لأحضر المزيدَ من الورق وجلستُ باستكانةٍ أخيرًا لأتحرر من كل شيء.. حرفيًا وبلا أدنى ذرةٍ من التصنّع سأبوحُ بكل شيءٍ لأشعر كأني عصفورةٌ كبّل قدرها أرجلها بثُقلٍ لم تستطع بسببه التحليق عاليًا وبدأتُ بالخطّ..

"من ابنةٍ تلقّت كل أنواع الجفاء من أبٍ وصل العتهُ بهِ أن يتحرش بابنته، من ابنةٍ تعرضت لتجبر والدٍ متسلط، من ابنةٍ نالت من قسوة قلب والدها فاقد الإنسانية أطنانًا، من ابنةٍ صارت حياتُها جحيمًا من فرطِ ما أذاقها والدها من أمراضه النفسية والعقلية قدرًا لا بأس به، لم يمر يومٌ واحد يخلو من ضغوطه النفسية التي يفرضها قسرًا على صغيرتهِ التي تدرس وتقوم بمهام المنزل لغياب والدتها الأبدي، كنتُ أعامل معاملة الجواري، إنه كابوسي.. لا أعرف ماذا فعلتُ لأعاقب بمثل هذا الأب.. اتّجهتُ للخيال لإنقاذي من ورطتي، في بعض الأحيان حين يتحول الواقع لمرارةٍ طاغية يهرب الفرد من واقعهِ الأليم لخيالٍ ينشئُه ويبنيهِ بنفسه، خيالٌ يخلو من ألم الواقع وبؤسه، يرتاحُ من ضغوطه منذ مروره لخيالهِ مُلقيًا ما على عاتقه ليتنفس بعمق.. لكن أسوء مراحل الخيال حين يمتزجُ الواقع بالخيال فلا

يستطيع الفرد تمييز الأحداث التي يشهدها هل كانت حقيقةً أم خيال من فرطِ ما اندمجَ مع خيالهِ صار يجهلُ حقيقة الواقع، أو بالأحرى نهرب من أوجاع الواقع ومرارته..

في خيالي يمكنني أن أشم رائحة التربة الممزوجة بقطرات المطر، يمكنني أن أشم رائحة العشب الأخضر عندما أمشي عليه متباطئةً، أستطيع أن ألمس سطح ذلك المستنقع الذي يقع خلف الربوة العالية وأن أخلع ملابسي للعوم فيه حرةً من كل شيء، والأجمل والأكثر عذوبةً أني أستطيع عيشَ طفولتي المسلوبة..

كبرتُ وكبرت مع آلامي، كل من يراني لا يخرج وصفه عن ثلاث: كئيبة، انطوائية، منعزلة ولم يتطرق أي أحد منهم للمسبب الرئيسي الذي أوصلني لما أوصلني لذلك، أنا فتاة عادية خاضعة لتجبر والد أحمق عديم الرحمة سلب مني حياتي منذ صغري ولم يبالي لمعاناتي، لم يبالي لتألمي، لم يبالي لأي شيء.. دائما ما يردد "هموتك وأخلص منك، والله لهقتلك" ولكن هل تفهم تلك الصغيرة لماذا يريد والدها قتلها، أحرقني.. نعم أحرق تلك النبتة الصغيرة وهي التي كانت تريد اللعب فقط، كان يمكنها أن تدفع نصف عمرها لترى نفسها يومًا في حضن ذلك المتجبر وكانت لتدفع ما تبقي منه ليعاملها بلطف، لكن ما هون علي وجود أمي بجواري.. تربت كعادتها على كتفي..

تزوجتُ هربًا من هذا المستنقع فلم أجد تغييرًا، الإضافة أن الزواج

يفرض عليّ تقديم حقوق زوجي له على طبقٍ من فضة سواء أوافقتُ أم لم أفعل، ينتزع الزوج حقوقه كاملة وحقوق العادات والتقاليد من زوجته بصفاقةٍ مثيرة للعجب، فمع أخذه لحقوقه لا يعطي لزوجته ربع حقوقها حتى، أما زوجي فقد اغتصبني مرتين ولم يراعي حرمة ذلك..."

لا أدري لكم من الوقت ظللتُ أكتب ذلك الخطاب مجهول الوجهة، حررتُ كل المشاعر التي تعفنت داخلي ولم أبح بها، أشعر كأني كاتبة الآن، لطالما آمنتُ بأن الكاتب مرّ بتجاربٍ عظيمة لو عرف كيف يحكيها لما أمسك بالقلم ولما لطّخ الورق بأوجاعه، الكاتب شخصٌ حساس مرّ بانهيارٍ عظيمٍ لم ينقذهُ منه سوى قلمه.. من المؤسف أن أكتشف قدرتي على الكتابة وقت نهايتي، لربما لي شبيهةٌ في عالمٍ آخر بقصةٍ أخرى تشعر وكأنها عاشت مأساةً فقررت كتابتها ولم تدري يومًا أنها بالفعل عاشت المأساة بحذافيرها في عالمٍ آخر..

تحريكي لآلامي هيّج مشاعري بطريقةٍ لم أتخيلها قط، كبكائي وارتعاشة جسدي وتهدّج أنفاسي، من بين الألم تولد الأفكار.. وبما أنني اكتشفتُ قدرتي على خلق القصص والعوالم ومعاقبة الآثمين فلن أرحلَ قبل استخدام عقلي في مهمتهِ الأخيرة، قمتُ مسرعةً من مكاني لِلملمة أشلاء هاتفي الأصيل، كسرت شاشته وانفصل غطاء الظهر عنه وتخلّت البطارية عن قلبه، دعوتُ الله لأن يظلّ يعمل حتى مع

بؤس حالته الغير صالحة للاستعمال، انتظرتُ عودته للحياة وبالفعل عاد، حاولتُ تجربة شاشةُ لمسه لأتأكد من كونها تعمل أم لا، كانت تعمل بصعوبةٍ شديدة لكنه سيؤدي غرضه، اتصلتُ على مطعمٍ شهير طلبتُ تحضير وجبة طعام شهية لفردين، مع خدمة التوصيل للمنزل، انتظرتُ نصف ساعةٍ حتى وصل أخيرًا في هذه الأثناء كنتُ قد عثرتُ على سم فئران كنتُ قد جلبته في حاجيات المطبخ للطوارئ وقت زواجي، ارتديتُ إسدال الصلاةِ وجلبتُ طرحةً كبيرة نسبيًا ولففتها على وجهي كنقاب، الفتيات يعرفن جيدًا كيفية تحويل طرحة لنقاب في ثلاث ثوانٍ ونزلتُ الدرج بهدوءٍ شديد لأخذ الطلب من عامل التوصيل، صعدتُ لشقتي قبل أن يراني أحد بعد أن أعطيته ضعف أجرته طالبةً منه انتظاري بلا إصدار أي صوت، أخذتُ الطعام ووضعتهُ بالسمّ وكأنه بقسماط.. ووضعته بماكينة القلي الكهربائية التي أشعلتها مذ طلبتُ الوجبة وقمتُ بقليهِ من جديد سريعًا، أثناء ذلك فتتُّ بضع أقراصٍ من دواءٍ أستعمله لضغطي، عشرُ حبّاتٍ فركتهم ليصيروا كالدقيق الأبيض وفتحت علب "الصوصات" المُرفقة للوجبة ومزجتُ بودرة الحبوب مع محتواهن، أعدتُّ كل شيءٍ لسابق عهدهُ ونزلت لفتى التوصيل، أعطيته عنوانًا جديدًا للتوصيل فرحب بذلك مبتسمًا لكرمي الذي أغدقتُ عليه به، شكرته وصعدتُ من جديد وأنا أتنفسُ الصُعداء لعدم رؤية أحدٍ لي، فنحنُ وقت المغارب والظلامُ ساترٌ

للتفاصيل بعض الشيء، صعدتُ لشقتي.. أغلقتُ البابَ بارتياحٍ وأنا أخلع ملابسي، سارعتُ بخطواتٍ سريعة لهاتفي الذي غيرتُ خطّه لخطٍ كنتُ أستعمله خفيةً من الجميع، كان رقمًا خاصًا جدًا ليس مع الجميع وبالتأكيد ليس مع من أريد الاتصال به، ضغطتُ أزرار الهاتف بالرقم المطلوب وانتظرتُ الإجابة..

-ألو.. مساء الخير يا فندم مع حضرتك مطعم " " حبينا نبلغ حضرتك إن رقمك فاز معانا بوجبة هدية لشخصين، فلو حضرتك حابب بلغنا بعنوان حضرتك لاستلام الهدية اللي هتكون عند حضرتك خلال دقايق من موافقتك..

لم يخِب ظني، فأنا على يقينٍ بأن لُعابه بدأ يسيل بالفعل مع سماعه لكلماتي، جشعه سيجعله يوافق على أي شيءٍ مجانيٍ مهما كان، سارع بالرد مُتلهفًا:

-طبعًا يا بنتي حابب، هو الواحد كل يوم بيجيله هدية من صوت قمر كدا.. المهم مدفعش فلوس لما آجي أستلم الهدية أه، حاكم هرجع اللي هييجي بيها.

-لا يا فندم بنأكد على حضرتك إنها مجانية تمامًا ومش هتدفع فلوس عند الاستلام، الوجبة وخدمة التوصيل مجانيين لحضرتك..

-حيث كدا بقى يبقى خدي العنوان أهو يا قمر.. علشان آكلهم لوحدي قبل ما الولية تصحى.

-ممكن اسم حضرتك يا فندم؟
نطق اسمه الذي أحفظهُ عن ظهر قلب:
-اسمي محمد عبد المولى..
أغلقتُ الهاتف وابتسامتي قد شارفت على لمس آذاني، قد فادتني مهارة تقليد الأصوات أخيرًا مع هذا المتحرش الجشع، منذ متى والمطاعم توزع وجباتها كهدايا لأرقامٍ مجهولة! ارتميتُ بجسدي العاري من جديدٍ بمنتهى السرور وأنا أتنفس بسعادةٍ أخيرًا بينما أمي تقفُ أمامي تُطالعني بفخر!

*****

أضفتُ ما فعلتُ للورق، حكيتهُ بسعادةٍ تختلف عن ما كتبتُ قبلًا، بنشوةٍ لم تُصبني من قبل في حياتي، لو تركتُ نفسي لهذا الشعور لن أُقدم على إنهاء نفسي.. أشعلتُ سيجارة تتلوها أخرى حتى انتهت علبتي الأولى فقمتُ جالبةً باقية العُلب، إن لم تُنهي تلك السجائر عليّ أنا وبطني الخالي سأنهي حياتي بنفسي.. يبدو أن التفكير في الغم يأتيكَ سريعًا للغاية فها قد أتى من عكر صفو لحظاتي الهانئة وأضحد محاولة هروبي للربيع.. أتي زوجي بعد هجرهِ لي لبضعةِ أيامٍ انقطع إدراكي فيهم عن الحياةِ الخارجية بمن فيها، أمي أتت للعيش معي، هي ترعاني في غياب الجميع، احتضنتها بشدةٍ كشدة ألمي من فراقها عن أبي ومنزلنا، لم تفارقني.. كنتُ أنام بحضنها يوميًا.. تربت بيدها

الحنون على رأسي الحليق، كانت تدثر جسدي العاري بالغطاء خوفًا عليّ كعادتها..

سمعتُ دخوله من باب الشقة فانتفضتُ من مكاني مُسرعةً لوضع الضمادة على عيني حتى لا يرى عيني التي فقدت ثم جلستُ مكاني أكملُ سيجارتي على مهلٍ وأنا أُذيب قطع الشمع الملون في الملعقة على شعلة الشمعة، ذابت ببطءٍ مُهدئٍ للأعصاب من فرط متابعتها، صببتُها على طرف المظروف لغلقهِ بإحكامٍ لن تفضّه إلا أيدٍ مقدرٌ لها ذلك في علم الغيب، عبث خارجًا في المطبخ يبحثُ عن شيءٍ ما يأكلهُ بينما النيران تأكل قلبي على مهلٍ من فكرة اجتماعي أنا وهو بمكانٍ واحد.. أشعلتُ لفافةً أخرى حينما انتهت سابِقَتُها، سحبتُ أنفاسها الأولى بغلٍ تمالكتهُ بصعوبة، خطواته تقترب مني.. معدتي تتقلّصُ خوفًا وجسدي ينتفضُ مع ازدياد شعوري بالحنق، أدار مقبض الغرفة، فتح الباب وبدأت ملامحه تندّ من خلفه حتى أصبح بكامل جسده أمامي مُمسكًا بتفاحةٍ يقضِمُها بوحشيةٍ كعادته، مع كل كضمةٍ يزأرُ حنقي أكثر فأكثر من متابعتهِ لي وأنا أُدخن بشراهةٍ غير مألوفة لشخصٍ حديث التدخين، عاريةُ الجسد.. أجلسُ على منضدةٍ أعبثُ ببعض الأشياء، ضحك على حالتي السابق ذكرها بشدة قائلًا بسعادةٍ غامرة:

-لو أعرف إن اللي عملته فيكي هيخليكي جامدة كدا كنت عملته من

زمان.. وكمان طلعتي بتدخني!!
بذلتُ مجهودًا عظيمًا في تمالك غيظي وجعل وجهي يبتسمُ وانا أرد قائلةً:
-أه شوفت، الفضل ليك.. خليتني أعمل حاجات مكنتش أتخيّل إني هعملها في يوم من الأيام.
نظرة الفخر تندّ من عينيه بينما عقلي يستغيثُ من خطته التي تبخرت بقدومه، اقترب مني مُتفحصًا ما أمامي، أمسك الحبل ناظرًا له بخبثٍ وهو يقول:
-إيه قررتي تغيري رأيك وتجاري رغبتي!
لحظةٌ من الفهم والتخطيط السريع جدًا كانت كفيلة بجعلي أبتسمُ "بنشوةٍ" من جديد، فاجأتهُ بسؤالٍ مُباغت:
-تحب أرقصلك؟!
نظرات الاندهاش التي علت ملامحه ممتزجةً بسعادته وخيالاته القذرة التي بدأت تتقافزُ أمام عينيهِ أعطتني إجابتي، قال مستعجبًا من حالي:
-مالك كدا راضية عني، إيه اللي غيرك كدا!!
ابتسمتُ له بحنانٍ مصطنعٍ وأنا أردّ عليه بعيونٍ ساهتة:
-قررت أجرب أوافقك بدل أصدك.. وأهو اعتبره عربون محبّة.

*****

الغُرفة قاتمة بلونٍ أحمر، أقفُ انا في وسط الغرفة أرقص على أنغامِ أغنيةٍ شعبية وحسن يبتلع كأس خمرٍ يتلوه آخر وهو يصيحُ حالفًا بجمال رقصي، أما أنا فقد كنتُ أتحرر من قيود جسدي والجاذبية الأرضية في آن واحد ودموعي لم تكف عن الانهمار من عيني وأنا أتمايلُ بغنجٍ مُفرطٍ أمامه جعله مُنتشيًا من فرط السعادة، قام من مكانه باحثًا عن مخدراته وعثر عليها بأعجوبة، لفّ سجائر مخدرةً وشرب أنفاسها مع مفعول الخمر الذي أذهب بعقلهِ أيقنتُ أنه في عالمٍ آخر، عرضتُ عليهِ أن يخضع لي الليلةَ لأريه كم أنا ساديةٌ بقدره أو ربما أكثر فقهقهَ عاليًا وهو يخبرني بموافقته، ابتسمتُ وأنا أذهب لأحضر الحبل الذي لم يكن قدرهُ إنهاء حياتي، أمرتهُ بالاستلقاءِ لأكتّف يديه بالحبل رأسيًا مع اتجاه جسدهِ لأعلى برأس السرير، شددتُ من إحكام قبضة الحبل على قبضته في ظل خورانِ قوتهِ وذهاب عقلهِ جزئيًا، أمرتهُ بسحب يديه لأتأكد من إحكامها فلم يستطع التحرّك، قصصتُ الحبل وبدأتُ بلف ما تبقى منهُ حول عنقه بغلّ الدنيا أجمع، وقعت بيدي يا حسن ولم تُسمّي عليكَ أمّك، وقعتَ ولن ينجدكَ مني أحدٌ حتى لو جاء ملك الموت لقبض روحك فلن يفعلَ لأني سأسبقه.. أنا اليوم سأحرر نفسي منكَ ومن كل ما يربطُني بالحياةِ فأنت الطرف الأخير المُمسِكُ ولا يريد تركي، فلأقطعنّ كلّ وصلٍ بيننا حتى أحلّق عاليًا.. عاليًا حيثُ لن يطالني إيلامكم لي!

حتى في لحظاتك الأخيرة لن ترحلَ محترمًا، على جُثتي أن يحدث ذلك.. ستذهب مُدنسًا تتراكم القاذورات على جسدك كما تجمّعت في قلبك ولسانك، صعدتُ فوقه، ثبّتُّ طرفُ الخيط في عمود طرف السرير وأحكمتُ قبضتها فيه بينما الحبل يلتفّ حول عنقهِ في موقفٍ شهي، لففتُ طرف الحبلِ الحرّ على يدي مرتينِ وهو ينظر إلي بغيرِ فهم ولا تخرج من فمهِ سوى تأوهاته، بدأتُ بشدّ الحبل بعنفٍ وبدأت أطراف يدي اليُسرى بالتحول تدريجيًا للون الأزرق، تحولت تأوهاتهِ لصراخٍ رجولي أجشّ تأكدتُ أن جميع المحيطين بنا سيسمعونه جيدًا، لكن وكما غضّوا الطرف عن صراخي المستغيث أتمنى أن يَغُضّوا الطرف عن منازعته لخروج روحه من جسده، صراخه يعلو.. يعلو أكثر بينما قمتُ من فوقه بطولي على السرير أسحبُ الحبلَ أكثر فأكثر، سمعتُ صوت باب الشقة يُفتح، بالتأكيد هذه حماتي ويبدو أنها جاءت لنجدته مستخدمةً مفتاح الشقة التي استعملته مرارًا لتدخل عليّ، لن تهرب مني أيها النجس، سحبتُ المقصّ وانقضضتُ على صدرهِ أهتِكُ سطحهُ المُدجج بالعضلات هتكًا متفرقًا وأنا أعدّ الطعناتِ بصوتٍ عالٍ، دلفت أمه الغرفة وأنا عند العدة رقم تسعة، لقد فارقَت الروح جسده فضحكتُ بشدةٍ تحول ضحكي لصراخٍ ضاحكٍ هستيريّ، نظرت لجثة ابنها الراقدة فوق سريره الذي هتك عرضي عليه فاغرةٌ فاهها وعينيها على آخرهما.. لحظاتٍ من المراقبةِ الصامتة وخرّت أرضًا،

تركتُ الحبل وذهبتُ لها وأنا أشعر بخدرٍ يسري بيدي اليُسرى تحديدًا في أصابعي، تحسستُ المكان الفارق بين فكّها وبداية عنقها لاستشعار نبضها وما إذا كانت على قيد الحياة أم لا، المكانُ ساكنٌ لا نبض فيه، قمتُ من عليها.. نظرتُ لها بشماتةٍ ثم بصقتُ على وجهها، تركتها ذاهبةً لابنها من جديد، لففتُ الحبل على يدي من جديدٍ راغبةً أن يقطعَ الخيطُ هذا رأسه، وقفتُ أرضًا ساندةً قدمي على طرف السرير وبدأتُ بسحبِ الحبل من جديدٍ بعزمِ ما بي من قوةٍ مع تفاقهم الألم بيدي، حتى فاجئني طرفُ السرير بتحركهِ من مكانهِ طائرًا بوجهي وفي أقلّ من الثانية تلحّف كل شيءٍ بالسواد..

*****

أحضر العسكري كوب الشاي الذي طلبه منه الضابط "ماجد حسّان" الذي بدأ بفضّ الخاتم الشمعي على المظروف الذي كتبتهُ "عبير" ليبدأ في قراءته قبل تحويله للقاضي، هل هي بالفعل مريضة نفسيًا كما قال المحامي الخاص بها هي ورفاقها حوّلهم الضغط والألم لمجانين أم أنه مجرد ادعاء من محامٍ بارع ليحصلوا على حريتهم، في تفاصيل حكايتها ذكرت عدة مراتٍ على أنها بدأت بفقد عقلها وأنا تخطط للانتحار، القصة بائسة بحق.. لم يمنع نفسه من التأثر بها وحده في مكتبه الفارغِ من سواه، يبدو أنها جُنّت بحقٍ وأن المحامي معه كل الحق في وصف عبير بهذا.. سلوكياتها في المصحة ستُحدد

إن تعافت فيُنزل عليها القاضي العقاب أم أنها أصبحت عددًا جديدًا يُضاف لسلسلة الفاقدين عقولهم من فرطِ الألم، تُرى لماذا يُجنّ الناس.. هل يظل العقلُ محبوسًا في غياهبِ الخيال فلا يتبقى من الإنسان في واقعه سوى دمية بلا عقلها الغائب في دروب الخيال أم أن العقل يذهبُ لأراضي اللا إدراك تنفيسًا عن نفسه من عِظَمِ ما شهد أم يتوقف العقل عن العمل بحق؟!

تفاصيل غيابها في الخيال تؤكد إصابتها بالفصام، الضلالات التي كانت تراها، ذكاؤها الحاد وشخصيتها شديدة الهدوء والاتزان، فكّر مليًا قبل أن يترك مكتبه قاصدًا مكتب وكيل النيابة، استأذن ودلف للداخل في هدوءٍ وهو يسحب أنفاس سيجارته:

-أنا معايا جواب هيفيدك جدًا في قضية عبير عبدالمولى..

رد محسن وكيل النيابةِ باستغراب:

-هي فاقت؟

عقب ماجد وهو ينفخ دخان سيجارته بتوتر:

-أه فاقت ورايح أحقق معاها، لو اللي في دماغي صح البت دي هتبق خطر على اللي حواليها

ردّ محسن بفتورٍ قائلًا:

-متشغلش بالك أوي كدا زيها زي غيرها هيمثلوا ويعملوا كل حاجة علشان يطلعوا براءة.

قام ماجد واقفًا وهو يقول لمحسن ناصحًا:

-يبقى اقرأ الجواب دا ضروري علشان تفهمني..

وهمّ مُنصرفًا مُغادرًا المبنى قاصدًا الذهاب للمشفى التي تقبع فيها عبير.

*****

يبدو أن قدري مذ اخترتُ التمريض مهنةً أن استيقظَ كل مرةٍ على سرير المرضى في غرفةٍ معقمةٍ باردة بقدر برودة قلبي، أقبعُ وسط حراسةٍ مشددة منذ عدة أيامٍ مذ فتحتُ عيني، أُعرض على وكيل النيابة ثم أُسحب لمرقدي هذا، استيقظتُ هذه المرة ببترٍ في أصابع يدي اليُسرى الأربع، لقد ماتت من فرط ضغط الحبل عليهم أثناء قتلي لزوجي حسن عليه من الله ما يستحق هو وأمه وأكثر، لم تزُرني منار حتى الآن ويصعُب على أمثالي استشعار ما ستشعر به تلك المسكينة، هل ستفرح لتحررها أخيرًا من هذه العائلة المريضة أم ستحزن لأكون بذلك خسرتُ حِضني الأخير في هذه الدنيا بعد أمي.. أمي التي لم تزرني مذ قتلتُ هؤلاء الأوباش، ترى هل غضبت مني؟ أخيّبتُ ظنها فيّ ولم أعد بفتاتها المهذّبة التي تخشى قتل بعوضةٍ تعدّت على ملكية دمها..

حماتي أرستقراطية الشكل غوغائية الباطن تاجرة مخدّراتٍ لها ثُقلها في السوق، حين بلّغ الجيران الشرطة وأتوا للإمساكِ بي

والتقاط الجثث الهامدة فتّشوا البيت عن بكرة أبيه ليكتشفوا اكتشافًا غريبًا، حماتي تاجرة مخدراتٍ بعد مراجعة دائرة معارفها -الواسعة جدًا- هي وابنها تاجر السلاح، تشاركوا في تجارتهم الممنوعة تلك، أما مكان تخبئتهم ففي أسفل منزلهم دوّار بهائم كان لهم بهِ أكثر من ستّ بقراتٍ سمانٍ يتبعُهُنّ ماعزٌ وغنمٌ كان زوجي المرحوم يرعاهم بانتظامٍ مُتقطّع، ودجاجاتٌ وديوكهنّ كانت أمه تجري ورائهم لتذبح منهنّ، في ركن الدوّارِ جبلٌ عظيمُ الحجمِ من التبن -طعامُ البهائم- دسّوا أسلحتهم وممنوعاتهم من المخدراتِ أسفل حفرةٍ طولها ثلاثة أمتارٍ أسفل سطح الأرضِ مردومٌ فوقهم التراب ومن فوق التراب جبلُ التبن، ديمشلت معروفةٌ ببلطجتها الزائدة عن الحدّ والوصف، فلا أفراد شرطةٍ يدخلون البيوت للتفتيش إلا وتعرضوا لمحاولاتٍ عديدةٍ من التصفية الجماعية، فيرجعُ أفرادُ الشركة ما بين شهداء وجرحى وأبطال بينما يطل أبناء ديمشلت ما بين فارّين من العدالة ومن لقوا حتفهم في غارات التصفية المتبادلة..

طرقٌ على البابِ تلاه دلوف ضابط من خلفه المحامي الخاص بي "حاتم" بأمرٍ من الطبيب أنا لا أغادر السرير فتابعتُ دخولهم بعيني وهم يجلسون، تكلم الضابط بلا انتظار:

-أنا الظابط ماجد حسّان، ودا تحقيق في حضور المحامي بتاعك علشان نعرف إنتي ليه قتلتي جوزك وحماتك وباباكي ومرات أبوكي!!

أصابتني سعادةٌ عارمة حينما اعترف هو بأني قتلتهم جعلت ملامحي تتحفّز بفرحٍ بينما بدأتُ أضحك، ملامحهما المستغربة علت وجهيهما، أعتقد أن الضابط أحس بوجود خلل ما لكني كنت سعيدةً فحسب، أيُعاقب السعيد في هذه الأيام الغَبِرة!! فباغتني بسؤالٍ انبسطت لوقعهِ ملامحي وانفرجت عيناي على آخرهما:

-ممكن توصفيلنا مشاعرك لما مامتك ماتت كانت عاملة إزاي، وإزاي قدرتي تشيلي مسئولية بيت بعد موتها!!

بدأتُ بالصراخِ فيه:

-أمي مماتتش.. أمي انفصلت عن بابا وسابتنا ومشت.. أمي مماتتش، أمي واقفة جمبك أهي، إنت بتقول إيه أمي مماتتش ومش هتموت، إنت سامع أمي مش هتموت!!

دلف طبيبي المعالج فورًا تعقبه الممرضة لحقني بحقنةٍ مُهدأة لأغفو على إثرها وجسدي بأكمله ينتفض.. ينتفض وكأنه صعق!

*****

خرج ماجد من الغرفةِ مُغلقًا بابها آمرًا الحراس بعدم دخول أحد، طلب عسكريًا فورًا طالبًا منه الذهاب للمشفى التي كانت تعمل به عبير على وجه السرعة طالبًا إحصار الطبيب محمود وعم محسن.. ساعاتٌ مرت حتى أتوا، دلفوا مكتب ضابط المباحث ماجد حسّان، تصطكّ أرجلهم وأسنانهم ببعضها خوفًا من الأمر، بدأت أسئلة

ماجد لهما على الفورِ طالبًا كافة التفاصيل.. تكلم محمود قائلًا بدقةِ إجابةٍ في محلها الآن:

-عبير بعد ما أمها ماتت رفضت رفض قاطع تعترف بموتها، بل اخترعت قصة انفصالها عن أبوها علشان تبرر غيابها الدايم.. وسط ما كلنا كنا بنهديها وبنصبرها علشان تعدي الصدمة دي، مكنتش أعرف إنها بتعمل كدا علشان تتفادى وقع تحرشات أبوها بيها..

فأكمل العم محسن قائلًا من بين دموعه المنهمرة بصمت:

-والله يا باشا حاولت تنتحر كتير من وساخة أبوها وكنت بمنعها، طلبت منها تيجي تعيش مع بناتي رفضت، كانت بتيجي تعيطلي بدل الدموع دم من عمايل أبوها فيها وهي يا حبّة عيني كانت بتستحمل كل دا وساكتة.. الله ينتقم منهم مطرح ما راحوا ضيعوا مستقبلها، دي استحملت اللي محدش يستحمله من جوزها وحماتها وأبوها ومرات أبوها.

يبدو أن شكوك ماجد كانت بمحلها، للمرةِ الأولى الضابط بنفسه من يسعى للحقيقة بدلًا من تبريرات المحامي التي قد تنطوي على الكذب في بعض الأحيان للفرار من العقوبة، أمرهما بالانصراف حينما استنفدَ كل معلوماتهما عن المتهمة وتاريخها المرضي الذي لم يكتشفه أحدٌ سواه، أقفل المحضر يعدما استوفى كل معلوماته وأمر العسكري الواقف على الباب تمريره لوكيل النيابة الذي حقق هو

الآخر في الواقعة من جديد وسط انهيار عبير عند ذكر موت أمها كل مرةٍ بنفس القوةِ أو ربما أقوى..

*****

استيقظتُ من مفعول المنوم.. جسدي يعوي من فرطِ آلامه، جاءت الممرضة تُبلغُني بقرار النائب العام لتحويلي للمصحة النفسية لتلقي الفحص على يد طبيبٍ نفسي سيحدد ما إن كنتُ مجنونةً أم مُستحقّةٍ للعقاب، من ثرثرتها الهامسة يبدو أن تسعة نساءٍ غيري قد حوّلوا لهذه المصحة معي للفحصِ حتى يحكُم القاضي في أمر شنقنا من عدمه.. ويبدو كما قالت أن إقامتي هناك ستكون شيقةً لا ملل فيها برغم كونه سجن، فلكل سيدةٍ منهنّ قصةً سأتوقُ بفضولي أن أسمعها، نبهتني أن أتصنّع الجنون حتى أظلّ بتلك المصحة فضلًا عن خسارة روحي على منصة الإعدام كما رشاها المحامي الخاص بي لتقول، نظرتُ لها بصمتٍ وأنا أتفحصها بشدة، كم ثانيةٍ ستستغرق في يدي لتلفظَ أنفاسها؟ أرعبتها نظرتي الثاقبة فقامت من جواري مسرعةً بعدما غيرّت على جرح يدي وفكّت خياطة وجهي..

تابعتُها بعينيّ أثناء رحيلها فلفت انتباهي وقوف الضابط ماجد حسّان ومعه حاتم.. المحامي الخاص بي، يطمح لأخذ مبلغ وقدره مني.. لا يهم فليأخذ أي شيءٍ في مقابل أن أخرج من هنا بلا رجعة، لكن ما أثار فضولي بحق هو نظرات الضابط المتعاطفة معي وبشدةٍ كأنه

يعرف قصتي مثلًا على أقل تقدير.. أيُعقل أن يكون هو صاحب نصيب قراءة مظروفي؟ لم يُذكر أمامي في التحريات مُطلقًا.. أيُعقل أن يكون هو من التقطهُ من وسط دوامات الموت التي كنتُ أقبع بها؟..

يبدو عنقهُ مُثيرًا بحق.. وأنا اشتهيت!

تمت..

٢٥ فبراير ٢٠٢١